الفصل السادس

من وسائل الدعوة الحوار

تمهيد فى سنّة الاختلاف :

التنوع ظاهرة كونية : إن من القوانين الراسخة : « قانون التنوع » وهو باق . . ماضٍ حكمه فى المجتمعات البشرية .

إن لكل منطقة ظروفها . . وثقافتها . . وعقائدها التى تفرض عليها تطوير أسلحتها للدفاع عن مصالحها .

ومن أجل ذلك كان لابد من الاختلاف : الاختلاف الإيجابى ، والذى يعنى اختلاف التنوع والتكامل ، وليس اختلاف التضاد والتعاند .

يقول أحد الكاتبين : أنت وأنا صديقان اختلفنا . وعندى أسباب وجيهة وعندك أيضًا . ورأينا أن التباعد أسلم . فابتعدنا . . وظللنا نتباعد حتى رأيتك صغيرًا ورأيتنى ضئيلا . ونحن ما نزال صديقين . . وكلانا حزين على هذه الجفوة والفجوة .

وحزننا على ذلك معناه أننا نريد أن نعود كما كنا . فليس بين الأصدقاء إلا الاتفاق والاختلاف . والاتفاق أقوى . والمحبة قادرة على تذويب العيوب . ولا أحد يخلو من العيوب . وسوف تبقى الخلافات والاختلافات والعيوب . . فالصداقة الحقيقية هى التى بين اثنين رغم العيوب . . فماذا تعمل ؟

أن نتقارب من جديد . . وأن نقترب وأن نعيد حكاية كل ما حدث بيننا . وإذا أعدنا ذلك ، فمعناه أننا عدنا إلى بعضنا البعض . . فإذا عدنا اتخذت كل الأشياء حجمها الصحيح ووزنها الحقيقى ومعناها النبيل . فكيف عدنا ؟ عدنا لأننا استمعنا إلى بعضنا البعض .

سمعتك تقول . . وسمعتني أقول . سمعتك تفسر وسمعتني أبرر . ورأيتني بعينيك لا بعين غيرنا ، ورأيتك وسمعتني مباشرة لا عن طريق طرف ثالث . هل أنت غلطان ؟ نعم . هل أنا غلطان ؟ نعم . فأنت غلطان وأنا غلطان .

وبعد هذه التصفية السريعة الصادقة النبيلة ، نعود صديقين . فالحياة بلا أصدقاء صعبة . ومن الممكن أن يكون له ألف صاحب وعشرة أصدقاء أو حتى صديق واحد صادق صدوق . هذا الصديق يكفي . . كأنه سرير واحد ومخدة واحدة وجانب واحد . صدقني : إن صديقًا واحدًا كثير جدًا . فإن أسعدك القدر بصديق واحد فأنت غني مليونير . فالأصدقاء ـ في هذا الزمان لا يقدرون بثمن والفلوس ـ لا تشترى قلبا، إنها تشترى عقلا وجسدًا . . مليون عقل وجسد ، ولكنها تعجز عن شراء قلب . والحب يكون بين القلوب ، والصداقة بين العقول، والمنفعة بين الأجساد !

فإذا أنت أحببت صرت غريبًا بين الناس : تكره العذاب وتشتهيه ، تعبد الحرية وتقدس القيود . . فالحب يجعلك المواطن الوحيد في دولة شمولية . . لأن الحب هو المستبد العادل . ا. هـ .

• • •

كيف نكون .. مع الاختلاف .. متفقين؟!

الخلاف .. والاختلاف

وفي حفل العشاء الختامي لأحد المؤتمرات العلمية دارت مناقشة حادة بين أحد المدعوين العرب وأحد الزملاء ، ترك الضيف العربي المكان على إثرها غاضبًا وكان الخلاف حول رأي اجتهادي للمرحوم الشيخ محمد الغزالي كان قد دونه في أحد كتبه تذكرت على إثر هذا الحادث مقالا في صحيفة الشرق الأوسط للكاتب اللبناني محمد السماك « المختلفون في الاجتهاد أفضل من المتماثلين بالإكراه » . فقد كان يحمل هذا المقال دعوة إلى تفهم حيثيات الاختلافات الإنسانية وضروراتها

المجتمعية ، فالإسلام له موقف واضح مع الاختلاف معه والاختلاف داخله ، فمع اختلاف الألسن والألوان كان من طبيعة رحمة الله اختلاف الشرائع والمناهج وهو ما أكدته الآية ٤٨ من سورة المائدة : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة:٤٨] . فإذا كان هذا هو موقف الإسلام من الاختلاف داخله ؟ بمعنى الاختلاف الناشئ عن تعدد الاجتهاد فى فهم النص الواحد ، أن مجتمعاتنا تفتقر إلى اكتساب سمة عدم تحويل الاختلاف إلى خلاف فإن الاختلاف لا يعنى بالضرورة أنه يجب أن يؤدى إلى المخالفة . إننا نحتاج إلى أن نرتفع بمجتمعاتنا إلى المستوى الذى نعرف فيه كيف يكون الاتفاق مع الاختلاف وكيف تكون وحدة المختلفين فى الاجتهاد أفضل وأجدى وأغنى وأجمل من وحدة المتماثلين بالإكراه .

• • •

معارك المثقفين فى نظر الأدباء

معارك المثقفين : قد تصيب بجراح .. ولكنها أبداً لا تقتل .

قد تُشعل النار .. ولكنها أبداً لا تحرق ..

ففى هذه الحروب : يكون الطعن بالكلمات .. والذبح بالحروف والألفاظ .. كل طرف لديه ترسانة من الصور الخيالية .. والمحسِّنات البديعية . يصوِّبها بدقة نحو الطرف الآخر .

ثم يتلقى ضربات مماثلة : من السجع . والطباق . والجناس !

وتنتهى المعركة فى كثير من الأحيان .. دون منتصر ولا مهزوم .. ليكتشف الجميع فى النهاية أنها كانت بلا سبب .. وبلا هدف سوى استعراض مذاهب الخطابة .. وإحياء ذكرى سوق عطاظ [١].

---

(١) الأهرام : أنيس منصور

يختلفون .. وهم مؤتلفون

معن بن عدىّ :

لما مات الرسول ﷺ بكاه الصحابة قائلين : ليتنا متنا قبله حتى لا نفتتن بعده . .

ولكن « مَعْنًا » قال : ولكنى رغبت فى أن أعيش بعده حتى أصدقه حيًا وميتًا!!

إنها وجهة نظر مختلفة . . لكن القلوب مؤتلفة (١) .

• • •

اختلفوا .. لكنهم ائتلفوا!!

قال رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه : ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين أحب أن أكون من المقربين . .

فقال ابن مسعود : ولكن هناك رجل ـ يعنى نفسه : يود لو مات . . لم يبعث !!

وانتهى الحوار مؤكداً أن الموقفين ـ على اختلافهما ـ يصدران من مشكاة واحدة . . فكلا الرجلين مشغول بالآخرة !

وقد اختلف ابن عباس وزيد بن ثابت رضى الله عنهما . . إلا أن أحدهما كان يجلّ الآخر . . رغم بعد المسافة بين الرأيين .

فقد كان ابن عباس يقول : الجد كالأب : يخرج الإخوة من الميراث .

وكان زيد لا يسقطهم . ومع ذلك تعايشا . . « إنها قلوب شاء الله تعالى أن تتلاقى رماحهم » .

---

(١) ذهب رجلان للإسكندر ليحكم بينهما فقال : إن حكمى لن يرضى أحدكما فاذهبا . . وليقصد كل منكما الحق . . ويطلبه فهو وحده الذى يقضى بينكما ويغنيكما عنى !! .

ولكن النور ظل ينير قلوبا عجزت الفتنة أن تغشاها .

لقد استمعوا .. فوعوا ما استمعوا :

ومِنَ الذى استمعوه قوله ﷺ : « **اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإن اختلفتم فيه فقوموا** » . متفق عليه .

ومن معانى ذلك : إذا اختلفتم فى المعانى .. فقوموا .. إلى أن تزول الحدة ويذهب الانفعال . ثم يكون الحكم عندئذ صائبا .

• • •

لماذا اختلفوا .. ولماذا ائتلفوا

أما اختلافهم فكان لأسباب منها :

أ ـ اختلاف التربية .

ب ـ والنشأة .

جـ ـ والطباع .

وأما ائتلافهم : فلأن هدفهم واحد .. وكل جهد لأحدهم يصبّ فى هذا الهدف الواحد محققا غاية كل الأطراف المعنية .

وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف:٦٧] ، فالمتقون يد على من سواهم .

فإذا اختلفوا فسرعان ما يأتلفون .. ومن قريب : ذلك .. بأن الهدف واحد والمهم أن يتحقق .. لكن لا يهمنا على يد مَنْ تحقق ؟!

• • •

obeikandi.com

من معانى اختلاف الصحابة

إنه وبعد وفاته ﷺ .. كان اختلافهم أمرًا متوقعًا .. وذلك بأن الرسول ﷺ كان عظيمًا .. وعندما يموت العظيم فإنه يترك من بعده فراغًا لا يملأ بسهولة ..

فإذا كان العظيم هو محمدًا ﷺ فإن الفراغ يكون أكبر .. ومن ثم يكون ملؤه أصعب .. فإذا تصورت أن من أصحابه من كان يظن أن الرسول لا يموت ـ كعمر رضي الله عنه .. إذا تصورت ذلك .. تبين لك كيف كان الخلاف من بعده متوقعًا ..

لكنه الاختلاف الذى لا يفسد للود قضية .

• • •

من صور اختلاف الصحابة

روى علماؤنا عن الزهرى : أن عمر رضي الله عنه استعمل قدامة بن مظعون على البحرين فقدم الجارود على عمر فقال : يا أمير المؤمنين إن قدامة شرب فسكر فقال عمر رضي الله عنه : من شهد معك ؟ قال : أبو هريرة . فدعا أبا هريرة فقال بم تشهد ؟ فقال لم أره شرب ولكنى رأيته سكران يقيء ، فقال عمر رضي الله عنه لقد تنطعت فى الشهادة .. ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم . فقال عمر: لقدامة إنى جادك ؟ فقال : لو شربت كما يقولون ما كان لكم لتجلدونى . فقال عمر رضي الله عنه : لِمَ ؟ قال قدامة : قال الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ [المائدة:٩٣] ، قال عمر رضي الله عنه : أخطأت التأويل إن اتقيت الله اجتنبت ما حرم عليك .

لا بأس من الاختلاف .. ولا بأس من الاتفاق

فقد اختلفوا .. لكنهم فى النهاية اتفقوا .. على بعد ما كان بينهم .. ففى تاريخنا الإسلامى ما يعرف :

بشدائد عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، ورخص عبد الله بن عباس رضي الله عنه .

فالاختلاف وارد ما دامت زوايا الرؤية مختلفة .. وما دام الباحث لا يتبع هواه . ولا هوى غيره من حزب أو جماعة ..

العالم المتبع أهواء الجمهور أشد خطرا على الدين من العالم المتبع هوى السلطان : فإن متبع السلطان سرعان ما ينكشف أمره .

أما الآخر : فهو فى ظاهره : متحمس للدين .. فلا يكتشف إلا بصعوبة والعامة بالذات لا يكتشفون أمره ويقعون فى أسره .

٢ ـ صبيغ وفكره وحبسه وضربه وعزله وإذلاله :

عن نافع : قدم المدينة رجل فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وأعد له عراجين النخل فقال : من أنت ؟ قال أنا عبد الله صبيغ قال : وأنا عبد الله عمر فضربه حتى دمى رأسه ، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين قد ذهب الذى كنت أجده فى رأسى ثم نفاه إلى البصرة [١] وفى رواية : « وكتب إلينا عمر: لا تجالسوه فلو جاء ونحن مائة لتفرقنا » . وفى رواية أخرى « فلم يزل صبيغ وضيعًا فى قومه بعد أن كان سيدا فيهم » [٢] ، وهذا الحكم المعتدل من عمر والمتمثل فى ضربه ومنع الشباب من مجالسته ونبذه ، يدل على مدى عناية الراشدين بالفكر السليم ، وأن من جاء بفكر مشوه غريب لا يسامح .

٣ ـ قصة الجوينى مع العلم وعودته لدين العجائز بعد فكر مختل :

عن الفيروز آبادى (عن الجوينى قال : قرأت خمسين ألفا ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم وعلومهم ،وركبت البحر الخضم وغصت فى الذى نهى أهل الإسلام كل ذلك فى طلب الحق وكنت أهرب فى سالف الدهر من التقليد والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق عليكم بدين العجائز فإن لم يدركنى الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز) [٣] .

---

(١) الدارمى (١/ ١٩٨)

(٢) مجمع الزوائد (١/ ١٩٨)

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧١) .

المتعالون بالمعرفة يقصدون ضعفة المسلمين بالتشكيك والتضليل :

قال القرطبي عند قوله : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ [آل عمران:٧] قال : متبعو المتشابة لا يخلو أن يجمعوه طلبًا للتشكيك في القرآن وإضلال العوام كما فعلته الزنادقة والقرامطة ، لاعتقاد ظواهر المتشابة كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسم وصورة مصورة .

والسائل إن كان يبغي بسؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير ، وإن لم يكن مقصده فقد استحق العتب ، إذ أوجد للمنافقين الملحدين في ذلك الوقت سبيلا إلى أن يقصدوا ضعفة المسلمين بالتشكيك في القرآن ، ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ [آل عمران:٧] طلبًا للشبهات واللبس على المؤمنين حتى يفسدوا ذات بينهم ويردوا إلى زيغهم (١) .

• • •

آخذون بالرخصة .. وبالعزيمة

وذات يوم : كان الصحابة رضوان الله عليهم معه ﷺ في سفر ، وكان منهم الصائم . . ومنهم المفطر .

ثم كان يوم حارّ : فقام المفطرون بخدمة الصائمين . . فقال ﷺ : « **ذهب المفطرون اليوم بالأجر** » !!

ثم جاء من بعدهم رجال على سمتهم :

أيضًا : اختلفوا . . لكنهم ائتلفوا .

كان مالك وأبو حنيفة يريان : أن الرضاع قليله . . وكثيره يحرِّم . . لأن القرآن علق التحريم بمطلق الرضاعة .

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ١٥) .

وكان الشافعى وأحمد يريان : خمس رضعات مشبعات .

وكان أحمد يرفض هدايا الولاة .. وكان غيره من الفقهاء يقبلها بحجة أن «الجندى» حارس الوطن .. وهو حارس الحق .. فله فيه نصيب .

وكان بعضهم يقبل منصب القضاء من والٍ غير عادل : إحقاقًا للحق .. وكان غيره يرفض ذلك .. ومع كل هذا فقد تعايشوا أما غيرهم : ﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الاعراف: ١٧٩].

فليست مشكلتهم الجهل : فقد سلحهم الله عز وجل بهذه المدارك .. فما أكثر الآيات المرئية من فوقهم ومن تحت أرجلهم .. ولكنهم لا يبصرون ..

ودلائل الهدى تناديهم ولكنهم لا يسمعون . ولا يبصرون.

وفوق ذلك فهم يملكون قلوبًا .. ولكنها خربة .. ليست مهيأة لفقه ما يبصرون وما يسمعون .

ألا إن مشكلتهم هى التجاهل وليس الجهل .. هؤلاء الذين يجدون ما يقولون.. لكنهم لا يجدون ما يسمعون .

ومع وضوح هذه الحقائق : لكن بعض الناس : يلغى مداركه .. التى هى منافذه لتلقى المعرفة ..وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] .

فليس العيب فى الآيات.. فالآيات واضحة لائحة ولكن العيب فيهم هم .. وذلك قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الاعراف :١٧٩].

وقد تظن الخلاف للوهلة الأولى سطحيًا .. ولكن يروعــك ـ بقليل من التأمل ـ ما وراءه من علم : وخذ اختلافهم حول « السواك » مثلا : لقد تساءلوا: هل هو تطبيب ؟

إذن . . فاستعماله « باليمين » .

أم هل هو إزالة للأذى ؟

إذن . . فاستعماله « بالشمال » .

وعندما يكون التركيز على « جذور » القضية . . تتضح أبعادها . . ثم ومع وضوح الرؤية . . يكون الائتلاف بعد الاختلاف .

أما حين تكون النظرة سطحية . . فلسوف يكون « حوار الطرشان » .

• • •

خلاف يفسد قضية الود

على مستوى العالم الإسلامى هناك اختلاف :

١ ـ اتجاه روحى .

٢ ـ اتجاه مادى .

٣ ـ انتماء للوطن وللقومية .

٤ ـ قوى خارجية تعمل فى الظلام .

٥ ـ ثم صحوة إسلامية تطلب القدوة الحسنة .

وفى هذا الجو المشحون بالتوتر تجاهد الدعوة جهاداً كبيراً لتطبيق الإسلام : ومع خلوص النوايا . . لكن هناك عقبات :

١ ـ إحياء النعرات العرقية والمذهبية من مثل : الكردية . والفرعونية . والأشورية . والسنة والشيعة ، والزيدية والعلوية . . ثم العلمانية .

ومع هذا . . فمازالت الدعوة تشق طريقها منطلقة ، من قاعدة تقول : ليس بالعلم وحده تكون الحضارة . . بل بالإنسان الذى هو العامل الأساسى . . ولا يتم له ذلك إلا بالدين . .

الدين بحقائقه الثابتة . . بعكس العلم الذى يمكن غدا أن يكون ظنيا .

وليس معنى ذلك أننا نريد حكومة إلهية . . وإنما نريدها حكومة إنسانية : تجتهد، وتخطئ . وتصيب . . ذاكرين عتابه سبحانه وتعالى للرسول مسددا خطاه:

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ ﴾ [التوبة: ٤٣] ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾ [الأنفال: ٦٧] ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ [الإسراء: ٧٤] ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [عبس: ١] ، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

إنها حكومة: توزع السكان بالعدل . والركاز بالعدل . حتى لا يكون فقر ولا انفجار .

إنها السلطة التنفيذية . . التى يزع الله بها ما لا يزع بالداعية . . ذلك بأن الداعية مرشد . . وعند ذلك تنتهى مهمته .

• • •

نفثة مصدور

ثم خلف من بعدهم خلف . . لا يزالون مختلفين . . وفى كل ناحية .

حتى انعقدت سحب من الأوهام . . أمطرت القلوب المجدبة . . فأنشأت ناسا متحاربين كأنما دينهم الاختلاف . . مع أنه : دين التوحيد . . والوحدة .

لقد كسبوا المعرفة . . وحرموا أخلاقها . وكسبوا الوسيلة . . وضيعوا الغاية ففاتت الفرائض . .

ويوشك الاختلاف أن ينأى بنا عن الدين مع ما تحمله الآيات من نذير مذموم: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

فهل ورثنا علل أهل الكتاب . . أم ورثنا « الكتاب » ؟!

قل معى هلك المتنطعون لماذا ؟

١ ـ يبالغون فى أمر . . على حساب آخر .

٢ ـ فيعطون الشيء أكثر مما يستحق .

٣ ـ فيختل التوازان . . والتوازن مطلوب ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص:٧٧] ، واتباع السنة يحقق هذا التوازن : لأنها تخلق شعوراً وجدانيًا بالألفة .

ثم التعاون . . الذى يشكلٌ خط دفاع مانع من الانحدار ثم الانهيار.

وويل للمتنطع : إن فهم فهو الفهم المعوج ، والممارسات الخاطئة ، ووسوسة شياطين الإنس . . حتى وصل التعصب ببعضنا إلى أن يقول قائل: كذاب ربيعة . . أفضل من صادق مضر ؟! وهكذا :

قالوا . . بغير علم .

ثم أفتوا . . بغير نور .

وعملوا . . ولكن بلا دليل : يستغرق أحدهم فى جزئية تستغرقه . . وينسى الأصول الجامعة .

وما الظلمة التى يراها إلا ظلمة نفسه .

وهكذا : كلما ابتعدنا عن فقه القرآن . . كلما تغشانا الظلام . . فإلى مزيد من الوعى يكون نوراً بين أيدينا : نمشى به ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[هود:١١٨، ١١٩] .

والمعنى : ولو شاء ربك لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الإصلاح . . فهو قادر على أن يجعلهم كلهم مصلحين ، متفقين على الإيمان . . فلا يهلكهم .

ولكنه لم يشأ ذلك . بل شاء اختلافهم . . فاختلفوا «القضاعى » .

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود:١١٨] والمراد : افتراق الناس فى الأديان . والأخلاق والأفعال «الرازى » .

﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ يقول القضاعى : أى الاختلاف . . بمعنى : أوجدهم من العدم وقدرهم .

وذلك : أنه لما طبعهم سبحانه على خلائق من الخير والشر تقتضى الاختلاف لتفاوتهم فيها . . جعلوا كأنهم خلقوا له . فجَرَوْا مع القضاء والقدر .

ولم يمكنهم الجرى على ما تدعو إليه العقول فى أن الاتفاق رحمة . والاختلاف نقمة .

حتى قال أحد التابعين : ما كان يسرنى أن الصحابة اتفقوا !!

يقول ابن تيمية : ولما ذكر الله خلافهم فى عدة أصحاب الكهف قال سبحانه: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف:٢٢] .

فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس مما أطلعه الله عليه فلهذا قال : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ [الكهف:٢٢] ، أى : لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته .

يقول الشاطبى فى الاختلاف : « إن اختلاف الأحكام . . عند اختلاف العوائد . . لا يعد اختلافا فى أصل الخطاب : لأن الشرع موضوع على أنه دائم أبدى لو فُرض بقاء الدنيا من غير نهاية » .

• • •

أهمية الحوار

تمهيد :

لأن الداعية مصلح اجتماعى .. فهو يخاطب القلوب .. وليس القوالب .. ولأنه يخاطب القلوب :

أ ـ فالعنف ليس من وسائله .

ب ـ ولا يكفى أن يبلغ الفكرة مجردة ، ثم يمضى .

إن وظيفته هى :

أ ـ الإقناع . ب ـ ثم الاعتناق ..

ومن ثم كان فى مقدمة وسائله : الحوار .

الحوار الذى يقنع به المدعو إقناعًا يصل به إلى اعتناق ما دعى إليه .. بعدما صار جزءاً من كيانه يجرى فى دمه .

أما مجرد إيصال المعنى .. فهو إجراء متاح يستطيعه كل إنسان ..

وأما بالعنف فهو قادر على السيطرة على القوالب على الأجسام .. ولكن الباطن غير مقتنع به .. على ما قيل :

تلوا باطلاً .. وجلوا صارمًا وقالوا : صدقنا ؟؟ فقلنا : نعم !!

أجل : نقول نعم .. لأن السيف فوق رقابنا ..

وأهمية الحوار شاهدها القرآن الكريم :

١ ـ فقد حاور الله عز وجل ـ وهو خالق ـ حاور المخلوق :

أ ـ الملائكة .

ب ـ وآدم .

جـ ـ والرسل .. وحتى : إبليس على ما كان منه من تمرد وعصيان .

ح ـ ثم كان الحوار .

د ـ بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه . وقومه . وولده .

بين : موسى وهارون عليهما السلام ، وبينه وبين « الخضر » .

وبين مريم ، وابنها عيسى عليه السلام .

وكان القرآن فى حديثه عن الحوار : شافيًا ، وافيًا ، كافيًا .. لكل من تدبره وأعاره كل مداركه .

ذلك بأنه : حوار العقول والقلوب .. حوار العقول .. بالبرهان .. لكن العقل وحده لا يكفى .. بل لابد من حوار القلب الذى هو مكمن الرغبة والرهبة..

ومن أجل ذلك رأينا رسول الله ﷺ وهو الحريص على خطاب العقل لا ينسى هز القلب بعنصر التحذير أو التخويف .

وذلك قوله ﷺ : « **يا بنى كعب بن لؤى : أنقذوا أنفسكم من النار** » .

إن الحوار نوع من أنواع الاتصال الإنسانى . وهو أداة فكرية للوصول إلى أهداف المحاورين .

إن السيطرة الفكرية لمنهج معينّ على حساب المناهج الأخرى تدفع بالمجتمع إلى الانغلاق على نفسه ، مما ينتج عنه نمو اتجاهات معاكسة ، قد تكون متطرفة : تنمو وتكبر فى الخفاء ، دون مراقبة وتوجيه .

فالفكر الحوارى .. الذى يعترف بالتنوع والاختلاف من أجل التعايش والوصول إلى اتفاق حول المشتركات عبر الحوار .. وصولاً إلى أرضية صلبة تبقى الوطن شامخًا ، قادرًا على مواجهة الضغوط الداخلية والخارجية لتأسيس قاعدة انطلاق حضارية » الرابطة (٤٦٤) .

ومن معانى ذلك : أنه لابد .. وقبل الدخول ساحة الحوار أن نكون أهلا لهذا

الحوار : بإصلاح أنفسنا .. بذكر عيوبنا .. ذلك بأن محاولة إخفاء عيوبنا لن يذهب بها من قبل خصوم لنا : لهم عيون ترى وآذان تسمع ، وأعصاب تحس ، وعقول تفكر .

ومن ثم فهم قادرون على كشف عيوبنا ..وعندئذ .. فلن يثقوا بنا ..

وكما يختار الإنسان أصدقاءه .. والفلاح بذرته ـ فإنه وبنفس الاهتمام يتخير أفكاره ..

واختلاف مشارب الباحثين .. وتنوع استعداداتهم .. واتجاهاتهم يتيح الفرصة لينتقى كل باحث ما يناسبه .. ليحقق أمله .. ويضيف إلى الحياة الفكرية جديداً ..

ولابد للباحث كخطوة أولى ـ أن يسائل نفسه على النحو الآتى ليتخذ بعد ذلك قراره الذى يطمئن إليه :

عليه أن يسأل نفسه أولاً قبل الدخول ساحة الحوار :

١ ـ هل أنا أحب ذلك الفرع من العلوم ؟

٢ ـ . . . وبالذات هذا الموضوع الذى وقع عليه اختيارى ؟

٣ ـ ثم .. هل المراجع متوفرة .. والحصول عليها سهل ؟

٤ ـ وهل يستحق الموضوع المقترح ذلك الجهد الذى سوف يبذل فى سبيل إعداده ؟

٥ ـ وقبل ذلك : هل ستسمح إمكاناتى بالوفاء له ؟

٦ ـ وفى مدة معقولة ؟

٧ ـ وما مدى إفادة الناس من وراء هذا الموضوع ؟

٨ ـ هل يضيف جديداً إلى المكتبة ؟.

وعلى ضوء الإجابات عن هذه التساؤلات يتحدد الموقف .. مضيًا فى التجربة.. أو عزوفا عنها .

طبيعة البشر

إن اهتمامات البشر تتعدد :

فمنهم من يروج سلعة .

ومنهم من يصحح فكرة . أو يحاول إقناع الآخرين برأيه.

والحوار فى طليعة الوسائل المحققة لهذه الحاجات .

وإذا كانت مهمة الداعية فكرية وجدانية .. فهو أحوج ما يكون إلى الحوار الذى يحقق به فوائد منها :

أ ـ إيصال الفكرة إلى المدعو . ابتداء ..

ب ـ ثم تنامى قدراته الحوارية كلما زادت خبراته .

جـ ـ القدرة على ضبط الأعصاب .. فى جو هادئ .. يرفض التعصب والإكراه . ليكون الولاء للحق وحده . ثم الاستسلام له طواعية . استسلاما نابعًا من أعماق الإنسان نفسه .. لا من خارجه ، وخذ على ذلك شواهد :

سمع جبير بن مطعم رسول الله ﷺ يقرأ فى صلاة المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآيات : ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ** ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] .

فقال : « كاد قلبى يطير ، وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبى » .

أما الوليد بن المغيرة ، فلم يملك نفسه إثر سماعه لبعض آى الذكر الحكيم أن قال عنه : « **والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله، وأنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وأنه ليحطم ما تحته** » ، لكنه لم يلبث أن زعم أن القرآن الكريم ما هو إلا سحر يؤثر ، مدفوعا بالعناد والمكابرة والحرص على إرضاء قومه المشركين .

قال علماؤنا : تتعدد المشارب فتختلف المذاهب .

قال د/ محمد عنانى : « ترجمت للدكتور / مصطفى محمود ثلاثة كتب ».

ولما سئل : لماذا الدكتور / مصطفى محمود بالذات ، قال : لأنه كاتب عصرى :

أ ـ يخاطب غيره بلغته .

ب ـ وليس هو ممن يسمع ما يحفظ !

إنهم يحاولون سرقة الأضواء من الدعاة .. لأنهم عرفوا كيف يحسنون مخاطبة الغير باللغة التى يفهمها .

أجل : قد تتعدد وجهات النظر فى القضية الواحدة .. وذلك لسببين :

أ ـ اختلاف العقول .. واختلاف الأمزجة .

ب وفى نصوص القرآن والسنة ما هو ظنى الدلالة .. بمعنى : أن النص يحتمل أكثر من تأويل ..

وفى الحديث المتفق عليه : أن النبى ﷺ ، قال يوم الأحزاب : « **لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة** » .

فقال بعض الصحابة ـ لما أدركهم العصر فى الطريق : لا نصلى حتى نأتيها. وقال بعضهم : بل نصلى : لم يرد منا ذلك.

فذكر ذلك للنبى ﷺ . فلم يعنّف واحداً منهم[1] .

والمهم هنا هو : أنه اختلاف وجهات النظر ، لكن القلوب لا تختلف.

وعلى هذا المحور يدور حديثنا عن الحوار كوسيلة من وسائل الدعوة :

أ ـ إن الحق واحد لا يتعدد .. أما الباطل فهو لجلج : متعدد المسارب مختلف الوجوه .

---

(١) فتح البارى (٨/ ٤١١) ، ومسلم كتاب الصلاة .

يقول عز وجل : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ...﴾ [الأنعام:١٥٣] .

إن الحق: صراط : لاحب وسيع : ثم هو مستقيم : قليل التكاليف : فوصولنا إلى الهدف عن طريقه سهل ميسور .

فى الوقت الذى يدور فيه المبطلون حول أنفسهم : تتوزعهم الشعاب .. فإذا هم تائهون .. راجعون إلى نفس النقطة التى بدأ منها المسير ..

ومن معانى وحدة الحق : أنه وإن كان واحداً لا يتعدد ..ولكن ذلك لا يمنع من أن تتعدد زوايا الرؤية .. ومن أجل ذلك شرع الجدل .. والذى يصير حقًا لكل من مارسه متسلحًا بآدابه ، والتى منها :

أ ـ صون اللسان ـ والقلم عن التشويه .

ب ـ احترام الطرف الآخر .

جـ ـ ثم ترك الحديث عن عيوبه مما لا صلة له بموضوع النزاع .

د ـ احترام تجاربه .. وإن لم يكن مسلمًا لمجرد أنها إفراز بيئة غير إسلامية.

وإذا كان الالتزام بهذا الأدب واجبًا إذا كان المجادل مسلمًا .. فإن هذا الالتزام يكون أوجب . لو كان على غير دينى ؟!

والمسموح به فقط هو : وقف الحوار إذا تجاوز الطرف الآخر تجاوزا وصل به الحوار إلى طريق مسدود ! ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [البقرة:١٥٠] .

• • •

التحدى الحقيقى

يقول بعض الباحثين : إن التحدى الحقيقى هو كيف ننزل القيم إلى الواقع ؟ هذا هو التحدى الكبير وما قلته لم يكن إضافة جديدة ، والعالم الإسلامى شهد مرحلة مثل هاته التى نمر بها اليوم فى بدايات القرن الأخير من خلال محاولات

التجديد ـ أعنى بالتجديد ليس فى الدين بل التجديد فى المسلمين . . وفيما أسميه الهندسة الاجتماعية الحضارية ، نحن الآن وبالخصوص فى العشر سنوات الأخيرة نشهد محاولات متعددة للانبعاث . . وهى محاولات مشجعة ترتكز على أساس التعددية فى الطرح والإعداد . وأظن أنها تعددية تمثل روح الإسلام والإرث الحضارى إنها «كنز» .

التعددية شىء جميل يجب المحافظة عليه بكل الوسائل فالإسلام جاء لاحترام الاختلاف ولولا الاختلاف لما كان هناك معنى للاجتهاد . . أى محاولة المقارنة واختيار الرأى الأصوب من عدة حلول ممكنة .

هذه التعددية شىء ضرورى وأساسى لصياغة العمل الإسلامى . . تعددية على أساس التسامح والقبول بآراء الآخرين وحقهم فى طرحها من أجل استقلال وتحريك كل الطاقات . . هاته الطاقات أكبر ذخيرة فى المجتمع . . من خلال دفعها فى اتجاه الخلق والإبداع والابتكار .

• • •

مراتب المتحاورين

يقول العلماء : واعلم أن أهل النظر على طبقات :

فقوم : حقهم الاجتهاد فى التعلم ممن فوقهم ؛ فهؤلاء يجب أن يكونوا سائلين لا مسئولين .

وقوم : توسطوا فى العلم ولم يبلغوا مبلغ الفتاوى .

فهؤلاء تارة يَسْألون ، وتارة يُسألون .

وقوم : تبحروا فى العلم ، وبلغوا مبلغ المقالة والفتوى .

فهؤلاء هم الذين لا يَسْألون ، ويجب أن يكونوا .. أبداً ـ مسئولين ؟

وقوم : دأبهم التطفل فى المناظرة : يستنكفون عن السؤال ؛ أو لقصورهم

فيه، ولم يبلغوا مبلغ أن يُسالوا ، وربما لا يفهمون أكثر ما يجرى ، ينتظرون فرصة أحد الخصمين على الآخر فيأخذ فى الشغب والصياح ، إيهامًا منهم لمن حضر المجلس من العوام وأهل النقض ـ أنهم من جملتهم ـ وهم صفر من صناعتهم .فهؤلاء لا يُعَدُّون فى جملة أهل الجدل والنظر [١] !؟ ا . هـ .

وعلى المحاور أن يتجاوز مراحل الدعوة هكذا :

قبل الدعوة : العلم ، والفقه .

وأثناءها : اللين ، والواقعية ، والموضوعية .

وبعدها : الثناء على المطيع . والتماس العذر للمخطئ

• • •

من ضوابط الحوار

قال الابن لوالده : يا أبت .. أراك تنهانا عن المناظرة ، وقد كنت تناظر ؟

فرد عليه أبوه قائلا : يا بنى : كنا نناظر . وكأن على رأس أحدنا الطير ، مخافة أن يزل صاحبه .

وأنتم تتناظرون ، وكأن على رأس أحدكم الطير .. مخافة أن يزل هو فيغلبه صاحبه !!.

وحتى لا تزل قدم بعد ثبوتها .. وحتى يحقق الحوار أهدافه .. فلابد من الالتزام بآداب وضعها الفاقهون حتى يبلغ الكتاب أجله :

ومن هذه الآداب :

١ ـ الإخلاص : فما دام الداعى يدعو إلى ربه .. فقد وجب عليه أن يكون ناصحًا أمينًا .. بمعنى أن تكون نصيحته خالصة لربه عز وجل .. وإخراج

---

(١) للحديث صيغ أخرى : رواه البخارى ، حج (٤٤) ، ومسلم : حج (٤٣٩) ، وابن ماجه : فرائض (٦) .

شخصه من معركة الرأى التى يجب أن يخرج منها الحق منتصرًا .. مهما كان انتصاره على يديك .. أم على يد خصمك .

وفى هذا يروون عن الإمام الشافعى قوله : « ما ناظرت أحدًا إلا وتمنيت أن يظهر الله الحق على لسانه » .

٢ ـ أن يكون الحوار مناوبة .. لا مناهبة .. بمعنى : ألا يستأثر طرف بالحديث .. ولابد أن يأخذ الطرف الآخر حظه فى الإبانة عن رأيه .

• • •

الخلاف والمحبة

يقولون : إن كثيرًا من الخلاف فى وجهات النظر ـ حتى بين الزملاء والأصدقاء يذهب بالمودة والمحبة ، فاحرص كل الحرص ألا يقع هذا ، واخطب ود أخيك أو صديقك فى كل مناسبة تسنح لك.

زره فى بيته ، هنئه بالمناسبات قدم له هدية ، أثن على الجوانب الجيدة عنده واذكر مزاياه فى حضوره وفى غيابه .

إن المناظرة والمناقشة والحوار ـ فى غالب الأحيان ـ تؤثر على القلوب وتكدر الخواطر ، فتذكر ذلك جيدًا وأنت تتحدث . فلا تخرج ـ ما أمكنك ـ معلنا الخصومة على أحد .

وتذكر دائمًا قول الشاعر:

واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية

وقول الشاعر الآخر :

فى الرأى تضطغن العقول وليس تضطغن الصدور

• • •

بالاقناع .. وبلا قناع

لقد اختلف الأنبياء طبعا . . بعد الاتفاق على التوحيد .

يقول عز وجل على لسان نوح عليه السلام : ﴿ ... رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦] .

وعلى لسان موسى عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس:٨٨] .

وقال عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٣٦] .

وعلى لسان عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨] .

ومن هذه الآداب : « غض الصوت » .

يقول عز وجل : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان:١٩] .

يحسن بالمحاور ألا يرفع الصوت أكثر مما يحتاج إليه السامع فذلك رعونة وبذاء ، والمحاور غير الخطيب الذى يقتضيه بعض مواضع خطابته أن يرفع صوته ورفع الصوت لا يقوى حجة صاحبه ، قط ، وفى أكثر الحالات يكون صاحب الصوت الأعلى قليل المضمون ـ ضعيف الحجة ، يستر عجزه بالصراخ على عكس صاحب الصوت الهادئ الذى يعكس عقلاً متزنا وفكراً منظماً وحجة وموضوعية .

وانظر إلى البحر : تجد الصخب والضجيج على الشاطئ عند الصخور حيث الماء ضحل لا جواهر فيه ولادرر . . وتجد الهدوء لدى الماء الأعمق حيث نفائس البحر وكنوزه ، والمثل الإنجليزى يقول : الماء العميق أهدأ .

obeikandl.com

وليس معنى ذلك أن تخفض الصوت لدرجة يعجز معها المستمع عن متابعة الحديث وإنما خير الأمور الوسط كما يقولون .

وقد وجد بالخبرة والتجربة أن الصوت المعتدل الهادئ المتأنى من غير صراخ أو صياح ومن غير إسرار وإخفات هو الأدخل إلى النفوس والأنفذ إلى الأعماق والأحفظ لجلال الكلمة ووقار المتكلم.

وكذلك من الأفضل ألا تجعل درجات صوتك على وتيرة واحدة لأن ذلك قد يجلب النوم للمستمعين ولكن يلزم أن تخفض الصوت وترفعه انفعالا مع الحديث فإن لقوة الصوت وخفضه دخلا فى تجديد الانتباه .

وحتى تتم الفائدة عليك ألا تسرد الكلام سرداً بل تجزئه وترتبه وتتمهل فيه ليفكر فيه سامعه . . وقد روى أن كلام رسول الله ﷺ كان فصلا يفهمه من سمعه وأنه إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا لتفهم عنه ا . هـ .

• • •

أن تعيش للإسلام ولا نعيش به

يقولون : من شروط نجاح العمل الإسلامى تجريد الدعوة من « الغرضية » وتحريرها من إسقاط الهم الخاص ، ولا يكون ذلك إلا بالاحتكام إلى الإسلام بدلا من التحكم فيه . فبعض ممن ابتلى ببعض العادات السيئة أو الممارسات المكروهة بدلا من أن يعترف بضعفه أو تقصيره يلجأ إلى تبرير أعماله بالبحث عن سند شرعى لها . . ويضرب الأستاذ الطيب برغوث مثلا على ذلك بمؤمن لقى زميلا له فسأله عن شخص يعرفه الاثنان . فقال له : لقد انتهى فلان ! فظن السائل أنه قد توفى ، ثم بين سبب انتهائه بالقول : إنه اشترى سيارة !!! وأضاف : إن الذى يريد أن يعمل فى سبيل الله لا يهتم بشراء سيارة !! ثم جاءت فترة فإذا بصاحبنا هذا يقاطع المشى على الأقدام ويشترى هو الآخر سيارة !

وهناك من يلتجئ إلى البحث عن مبررات شرعية يغطى بها فشله ويسوغ بها

وضعه محتجًا بالظروف أو الحكمة .. وربما انجرف لاتهام من يأخذ بالأوجب والأفضل بالتعصب أو الانغلاق !

وقد يحدث العكس حينما يريد الصنف الموفق أن يكون كل الناس على شاكلته من الفهم والالتزام والعمل ، فينعتهم بالتسيب والميوعة ، أو بالضعف والانحراف !

كذلك سلوك بعض الجبناء الذين يستولى عليهم الخوف من كل شيء ، الفقر، المحبة ، الناس ، الأحداث .. وهم يريدون درء ما يضرهم مهما كان تافها، ولو كانت فيه مصلحة عظيمة للإسلام والمسلمين ، فيجهدون فى إثبات ما يبرر مواقفهم ، بل ويحاولون كبح جماح من يريد تقديم مصلحة الإسلام على مصلحته ، والعكس أيضًا موجود ، إذ هناك فئات تهوى المغامرة وتشنع بمن لا ينحو نحوها فيها .. وآخرون يسقطون همهم الخاص على الهم الإسلامى العام ، فينتصرون لأنفسهم حتى تدفعهم هذه الحالة إلى الخروج عن الجادة فتشيع الفرقة وتتشتت القوى وتهدر الطاقات ، وهنا يجيء سؤال : لماذا هذا التحكم فى الإسلام؟! ا . هـ .

١ ـ افهم جيدًا كل ما يقوله خصمك ، ثم لخصه بدقة وأمانة .. ثم قل له : ألست تقول كذا ؟ وذلك حتى لا يشوش عليك المبطل لدى الحاضرين.

٢ ـ إذا ألزمت خصمك .. فألزمه بما أنت متأكد من صحته تمامًا .. حتى لا تسقط .

٣ ـ لا تحاسب خصمك على زلل لم يقصده .. كل أولئك .. حتى لا تضر نفسك : وقد قالوا : « إن ما يقوله « بولس » عن « بطرس» يخبرنا عن « بولس» أكثر مما يخبرنا عن « بطرس » .

• • •

التسليم بالخطأ

والتسليم بالخطأ صعب على الإنسان الذى لم يعتد عليه ، خاصة إذا أخطأ أمام جمع، فإنه يشعر بالحرج والخجل الشديدين من خطئه ، والتسليم بالخطأ يحتاج إلى شجاعة أدبية ، وقوة نفسية ، ومجاهدة للنفس ، ولكن الإنسان متى اعتاده وجد له حلاوة قد تقارب أحيانا حلاوة الفوز والنصر .

والتسليم بالخطأ ـ بخلاف ما يظن المخطئ أول وهلة ـ يكسب صاحبه احترام الثانى وتقديره ، على عكس الإصرار على الخطأ الذى يفقده احترام الثانى له ، كما يفقده احترامه لنفسه ، وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون** »(١) .

• • •

لا تغضب

إذا لم يوافقك صاحبك على رأيك فلا تغضب ، ولا تحاول أن تحمل الناس على ما تراه حقًا وصوابا ، إذ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] ، فمن باب أولى أن لا يكون إكراه فى وجهات النظر .

كان الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أثبت الأئمة فى حديث المدنيين عن رسول الله ﷺ وأوثقهم إسنادا ، وقد ألف كتابه (الموطأ) وتوخى فيه إيراد القوى من حديث أهل الحجاز ، . كما نقل ما ثبت لديه من أقـوال الصحابة وفتاوى التابعين وبوبه على أبواب الفقه ، فأحسن ترتيبه وأجاد تبويبه ، واعتبر (الموطأ) ثمرة جهد الإمام مالك أربعين عامًا ، وهو أول كتـاب فى الحديث الصحيح والفقه ظهر فى الإسلام، وافقه على ما فيه سبعون عالما من معاصريه من علماء الحجاز . . ومع ذلك فحين أراد المنصور كتابة عدة نسخ منه ، وتوزيعها على الأمصار، وحمل الناس عليه حسما للخلاف، كان الإمام مالك أول من اعترض،

(١) أخرجه الترمذي ، وابن ماجه وأحمد والدارمى.

وقال : « يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم .. فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم » ، فقال الخليفة : وفقك الله يا أبا عبد الله [١] .

وعندما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة ، كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عاملا له (أى واليا) ، وكانت وجهات نظرهما فى المسائل تختلف فهل حمل أمير المؤمنين عامله على رأيه ؟ لا ، وهل غضب منه لمخالفته إياه ؟ لا ، فقد ذكر ابن القيم أن ابن مسعود خالف عمر رضي الله عنهما فى حوالى مائة مسألة [٢] . فلماذا أغضب أنا وتغضب أنت . ونريد أن نحمل الناس على رأينا . وهذا ما لم يفعله عمر بن الخطاب والإمام مالك بن أنس رضي الله عنهما ؟

كان أحد المفتونين بالحياة الحديثة يتحدث عن تخلف الأمة . فقال فيما قال : إن الناس وصلوا إلى القمر ونحن لا نزال إلى الحجاب ، قال له أحد الحضور : وما شأن الحجاب بذلك ؟ قال الرجل : إنه تخلف يعوق مسيرة التنمية والتقدم . فقال له : طيب إن فى بلاد المسلمين أعدادًا هائلة من النسوة خلعن الحجاب ومع ذلك لم تصلوا إلى القمر .

إن القاعدة فى دعوة الناس حاكمين أو محكومين هى الرفق لأن أسلوب التحدى ولو بالحجة الدامغة يبغض صاحبه للآخرين .. والأصل أن تكون لغة الحوار شدوًا نتبادله لا صخرًا نتقاذفه .

وحين يكون الحوار مع طاغية اشتهر بالظلم وليس همه من الحوار إلا الإيقاع بالخصم وكانت النتيجة معروفة سلفًا فإن بوسع المظلوم ـ وخاصة إذا كان من العلماء المتبوعين ـ أن يصدع بالحق ولا يرضخ للظلم حتى ولو كانت النتيجة أن

---

(١) حجة الله البالغة (٢٣٥) .

(٢) رواه أحمد والترمذى والحاكم ، وانظر كشف الخفاء للعجلونى (٢/ ٢٠٠) .

يلحق بفواقل الشهداء وحسبه ما ذكره رسول الله ﷺ : « **سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائز أمره ونهاه فقتله** » (١) .

والمخاطرة بالنفس والمال مشروعة فى إعزاز الدين والتمكين له ولا يستبين الحق إذا أجاب العالم تقية لأنه ممن يقفو على أثره خلق كثير .

• • •

لا أعلم

إذا وجهك مناقشك أو مناظرك بشىء لا تعرفه فلا تخجل من السؤال والاستيضاح ؛ لأنك إذا سكت فربما تحرج فيما بعد ، وتتهم بالجهل ، وبالتستر على الجهل ، واعلم أن هناك من الأئمة الكبار من كان لا يخجل من أن يقول لا أدرى ويتحرج من الفتوى بغير علم تام .

قال عبد الرحمن بن أبى ليلى : أدركت فى هذا المسجد ـ مسجد النبى ﷺ ـ مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، ما منهم أحد يسأل عن حديث أو فتيا إلا ود أن أخاه كفاه ذلك . وفى لفظ آخر كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ، ويردها الآخر إلى الآخر حتى ترجع إلى الذى سئل عنها أول مرة (٢) .

وروى عن الإمام مالك رحمه الله : أنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة ، فقال فى اثنتين وثلاثين منها لا أدرى . وكان علماء السلف يقولون : إذا أخطأ العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله ، ويقولون : ينبغى للعالم أن يعلم جلساءه قول لا أدرى حتى يكون ذلك فى أيديهم أصلا يلجأون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى ، قال : لا أدرى » (٣) .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين (٢/ ١٢٠) .

(٢) إتحاف السادة المتقين للزبيدى (١/ ٢٧٩) .

(٣) أدب الاختلاف فى الإسلام ـ للدكتور / طه جابر (ص١٢٦) .

ذلك أن الشعور بالتبعة ويقظة الضمير عند العالم المخلص تجعله دائمًا حريصًا على التثبت والروية وعدم العجلة أو التسرع فى إصدار الأحكام أو الفتاوى حتى لا يوقع الناس فى فتنة يتحمل وزرها ويسائله الله سبحانه وتعالى عنها يوم القيامة.

ولا ينبغى أن يداخله أدنى شعور بالخوف من الناس أن يشيعوا عنه أنه سئل فلم يجب لأن كثيرًا من المزالق يقع فيها العلماء بسبب ذلك .

روى ابن سعد عن نافع : « أن رجلا سأل ابن عمر عن مسألة فطأطأ ابن عمر رأسه ولم يجبه حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته فقال له : يرحمك الله أما سمعت مسألتى ؟ قال : بلى ولكنكم كأنكم ترون أن الله ليس يسائلنا عما تسألوننا عنه ، اتركنا يرحمك الله حتى نتفهم فى مسألتك ، فإن كان لها جواب عندنا وإلا أعملناك أنه لا علم لنا بها » .

وعن محمـــد بن جبير بن مطعـــم عن أبيه أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أى البلدان شر ؟ قال : « **لا أدرى** » فلما أتاه جبريل عليه السلام ، قال: « **يا جبريل أى البلدان شر ؟**» ، قال : لا أدرى حتى أسأل ربى عز وجل ، فانطلق جبريل عليه السلام ثم مكث ما شاء الله أن يمكث فقال : يا محمد إنك سألتنى أى البلدان شر فقلت لا أدرى وإنى سألت ربى عز وجل أى البلدان شر فقال : « **أسواقها**»[1] .

وكان الصديق رضى الله عنه يردد كثيرا إذا سئل فى أمر : « هذا رأيى ، فإن كان صوابًا ، فمن الله وأحمد الله عليه ، وإن كان ما قلته غير ذلك فمنى ومن الشيطان وأستغفر الله منه » .

ولا ننسى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو من جعل الله الحق على لسانه وقلبه وقف يخطب فى المسجد عن صداق النساء وضرورة تقليله فاعترضته

(١) اخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى .

إمرأة بالآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٢٠] . فقال فى شجاعة : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وليس من قبيل الإحساس بالضعف أن يقول المحاور بينه وبين نفسه وما أبرئ نفسى فأنا بشر أخطئ وأصيب بل وربما كان الانتصار على النفس والإنصاف منها خير دليل وأكبر شاهد على صدق صاحبها ، فالرجوع إلى الحق دائمًا خير من التمادى فى الباطل . ا . هـ .

• • •

التواضع

كاتب سويسرى ينشر بحثا يختمه بقوله مخاطبًا المسلمين إننا نطلب منكم ـ من المسلمين ـ بشكل خاص جداً : نطلب منكم يا من تؤكدون بشدة القرابة القوية بين ديننا : أن تؤمنوا أن لدى الغرب شيئًا أكثر وأفضل .

أفضل من ثقافتكم : إنه كلمة الحياة : رؤية مملكة الرب ، وأمل لانهائى : أمل لا ينتهى .

نعبر عنه بكلمة واحدة ، وباسم واحد : إنه يسوع المسيح (١) .

ولقد تحددت هذه النزعة من المستكبرين قديمًا . . ومنهم الذين قالوا : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود: ٢٧] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود: ٢٧] .

الأمر الذى حمل ، الأنبياء على التواضع فى مثل قوله : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود: ٨٦] ، أى : لست عليكم بمسيطر .

أما بعد : فإننا نتساءل : ولماذا التواضع ؟!

(١) مجلة الأزهر ـ شوال ١٤٢٧ (ص ١٦٢٠) .

إن الرجل العامى يقف عند السطح ، ولا يغوص فى الأعماق .. وإذن .. فثقافته ضئيلة قليلة .. وقد يظن معها أنه فرغ من تعلمه بعد ما حاز العلم من أطرافه .. الأمر الذى قد يصيبه بلوثة الغرور .. فى الوقت الذى يبدو فى عين الآخرين صغيراً ..

ولكن الداعية يعرف من أسرار النفس .. وقوانينها .. ما يجعلها بحراً لا ساحل له .. ومن ثم .. يصغر فى عين نفسه ..؛ إزاء هذا البحر المتلاطم .. والذى أكد له أنه كلما ازداد علما .. كلما تأكد له أنه لم يحصّل شيئًا !!

ومن أجل ذلك .. يكون خلق التواضع نابعًا أساسا إلى جانب كونه خلقًا مرضيا يبدو نابعا من طبيعة الوظيفة ذاتها .

إن الداعية لا يكون مغروراً .. وإذا أحسن الداعية بمزية فيه .. فلا يمكن أن يكون بها مغروراً.. ذلك بأن القاعدة تقول: الخصوصية .. لا تقتضى الأفضلية.

• • •

التجرد من كل فكرة سابقة

ونقرأ فى ذلك من حوار الخليل إبراهيم عليه السلام : قال عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام:٧٦].

فالخليل عليه السلام يفترض صلاحية ربوبية « الكوكب » ابتداء .. ويعنى ذلك التخلى مؤقتًا وفرضًا عن عقيدة التوحيد ..

فلما وصل الحوار إلى تقرير حقيقة التوحيد أخيراً .. أعلنها مدوية : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٩].

أما دخول ساحة الحوار بما وقر فى نفس المحاور من عقائد وأفكار .. فإن ذلك مانع من الوصول إلى الحق المجرد .. وإنما هى الأفكار القديمة يدخل به الإنسان ساحة الحوار .. فإذا هى قيد يشل حركته .. فلا ينطلق فى الاتجاه

الصحيح !!

• • •

ضرورة البدء بنقاط الاتفاق

وذلك يحقق ما يلى :

١ ـ ثقة متبادلة .

٢ ـ إحساس بحسن نية الطرف الآخر .

٣ ـ حشد الطاقات لإظهار الحق .

إن المحاور الذى يبدأ بتقديم نقاط الاتفاق بينه بين الطرف الآخر ، إنما يبدأ فى الحقيقة بكسب ثقته ، ويبنى معه جسراً من التفاهم إلى الأمر محل الخلاف . يقول ديل كارنيجى (١) ما معناه : « دع الطرف الآخر يوافق فى البداية على الأمثلة التى تطرحها عليه ، ويجيب بـ (نعم) وحل ـ ما استطعت ـ بينه وبين (لا) لأن كلمة (لا) عقبة كؤود يصعب التغلب عليها ، فمتى قال أحد (لا) أوجبت عليه كبرياؤه أن يظل مناصراً لنفسه . . إن قول (لا) هو أكثر من مجرد التفوه بكلمة مكونة من حرفين . . إن كيانه بغدده ، وأعصابه ، وعضلاته ، يتحفز ليناصره فى اتجاهه إلى الرفض ، بينما لا يكلف قول (نعم) أى نشاط جسمانى) .

ويقال : إن سقراط ، حكيم اليونان وفيلسوفها الشهير كان يتبع هذا الأسلوب كان يبدأ مع الطرف الآخر بنقاط الاتفاق بينهما ، ويسأله أسئلة لا يملك الإجابة عنها بغير (نعم) ويظل سقراط يكسب الجواب تلو الجواب ، حتى يرى مناظر نفسه أنه مقر بفكرة كانت ينكرها قبل قليل .

الرجوع إلى الحق بعدما تبين :

كان المسلم يحب أخاه . . ويحب الحق أيضًا . . ولكن الحق كان أعز عليه

(١) كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس (ص١٥٣).

من أخيه ؟!

فإذا ظهر .. التزم به طائعًا .. ضاربا بقرابه الدم عرض الحائط ذلك : بأن الرجوع إلى الحق أولى وأجدى : ولنا فى السنة شواهد .. منها : قوله ﷺ : **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور .. ألا فزوروها .. فإنها تذكر الآخرة»** .

وهكذا وحّد الحق طوائف الأمة فكانت حضارة الإسلام .. تلك الحضارة .. التى رفرفت أعلامها لما كنا خلائف .. ثم توارت بالحجاب لما صرنا طوائف ..

الأمر الذى يفرض علينا عودا حميدًا إلى تاريخنا الزاهى نستمد منه عناصر قوتنا .. لقد كان « معاوية » رضي الله عنه .. فى دمشق ..

وكان « على » رضي الله عنه .. فى المدينة ..

ومع ذلك .. فقد تأتيه الأسئلة من « دمشق » فيجيب عنها .. بغض النظر عن الخلاف بينهما .

وفى هذا يقول عز وجل : ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] .

وقد أراد عثمان رضي الله عنه رجم امرأة ولدت لستة أشهر .. باعتبارها زانية . وراجعه علىّ رضي الله عنه مراجعة مدعومة بالدليل فقال له : كلا .. إن المرأة قد تلد لستة أشهر .. مستدلا على ذلك : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الاحقاف: ١٥] .

ووجه الدلالة : أن الله تعالى قال : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] .

فإذا طرحنا الحولين أربعة وعشرين شهراً من ثلاثين .. كان الباقى ستة .. وهى مدة الحمل .

وقد اقتنع عثمان رضي الله عنه .

• • •

موضوعية الحوار

ينبغي أن يتجنب الداعية الأحكام المطلقة . بحيث يكون موضوعيا في حكمه . . فلا يتجاهل إيجابيات من يحاوره . .

وهذه بعض ملامح المنهج القرآني في الحكم على الآخرين . . أو . . لهم يقول الله عز وجل : ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [التوبة:٩٧] .

لكنه يقول سبحانه : ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة:٩٨] .

وعلى المحاور أن يركز على الفكرة المطروحة دون تعرض لشخص المحاور . . حرصا من المحاور المسلم على الطرف الآخر رجاء أن يجيء إلينا مسلمًا . .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يدعو من أدبر وتولى عنه سبحانه فكيف بمن أقبل عليه ؟!

والدعـــاة مطالبون أن يتخلقـــوا بأخلاق ربهـم سبحانه . . فيوسعوا من صدورهم . . لتسع العائدين من المعاندين .

• • •

العواطف .. لا المواقف

قالوا : [هناك من نجده يحرص على كسب المواقف مع الآخرين دون الاهتمام بكسب العواطف ، أي يهتم بالإقناع بوجهة نظره وإسكات المخالفين بحجته ، بينما الأسلوب الأقوم هو أن يحقق الكسب عن طريق احترام الغير ومراعاة مشاعره ، والداعية اللبق يأخذ دوره في الكلام منطلقا من وجهات نظر الآخرين الصائبة ليؤكدها ثم يبني عليها] ا. هـ .

إن الإسراف في العواطف سبيل إلى الإسراف في التقدير . . ومن ثم تفسد الأحكام على الناس وعلى المواقف .

• • •

مع الشيخ على الطنطاوى

يقولون : [أنا أدعو إلى مناظرتى كل مخالف لى ، على أن يكون فى رأسه عقل ، وفى يده قلم ، أو فى فمه لسان ، أما الذين حفظوا كلمات فهم يرددونها كالببغاوات ، لا يحاولون فهمها ، فلا شأن لى معهم ، ولا وقوف لى عليهم .

يقولون : « رجعية » فما الرجعية ؟ هى الرجوع إلى الماضى ، أى إلى أخلاقه وعاداته ؟ فما يمكن أن يرجع إلى زمان مضى ، فهل الرجوع إلى مثل أخلاق المسلمين الأولين نفع أو ضرر ؟ وهل يكون الداعى إلى تلك الأخلاق مصلحًا أو مفسدًا ؟ هذه هى الرجعية عندنا .

الرجوع إلى الدين . أفترجع فرنسا إلى دينها، أى إلى كاثوليكيتها ، ويظفر الحزب الدينى فيها بأكثر مقاعد المجلس النيابى ، فلا ينكر عليها أحد ، ولا يتهمها أحد بالتأخر ، ولا يصفها بالجمود ؟ (اذكروا أن المقالة منشورة سنة ١٩٤٦) ونطلب نحن العودة إلى ديننا الحق ، فيقول السفهاء إنا متأخرون جامدون؟

لا . هذا كثير . هذا كفر بالمنطق ، وتعطيل للفكر . هذا شىء نستحيى منه أن يكون فينا من يقوله :

ونحن إذ ننتقد شيئًا نبين أضراره ، فبينوا أنتم منافعه ، حتى إذا وجدنا المنافع أكثر أخذنا به ولو حملنا معه شيئًا من الضرر ، ونحن نعلم أنه ليس فى الدنيا خير محض ولا شر محض ، وأن الخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما فلذلك حرَّمنا .

إنه لابد فى كل مناظرة من مبادئ يتفق عليها الطرفان ، ليعودا إليها ، ويرتكزا عليها ، وما المنطق إلا رد الفروع إلى هذه الأصول ، فإذا كان المتناظران مختلفين فى كل شىء . يرى هذا أن العفاف نافع فيقول الآخر بل هو ضار ، ويدعى هذا أن اتباع الدين واجب فيقول الآخر إنه ممنوع ، ويرى هذا العمل على

منع الفجور ويرى ذاك العمل على نشر الفجور ، فكيف يمكن أن يكون بينهما كلام ؟

فلنتفق أولاً على أصول : هل العفاف وقصر الاتصال الجنسى على المشروع منه خير أم هو شر ؟ هل قيام المرأة على تربية أولادها بنفسها ، وإخلاصها لزوجها وبيتها ، خير أم هو شر ؟ هل مراقبة الله وخوفه ، وتمسك كل امرئ بفضائل دينه ، خير أم شر ؟

هذه ثلاث مسائل أطلب الجواب عنها .

وإنه ليكون غروراً منى ، وازدراء للخصوم وللقراء ، إذا افترضت أنهم يرون هذه الأمور شرا ، فحاولت إقامة البراهين على أنها خير ، وأتعبت نفسى والقراء فى إثبات هذا الأمر الذى أظنه ثابتًا عند العقلاء جميعًا ، وإنى أؤجل هذا الإثبات إلى حين الحاجة إليه ، وأبنى المناظرة على هذه الأسس الثلاثة .

فتفضلوا قولوا : هل هذا الذى أوصلتمونا إليه يحفظ علينا عفافنا أم هو يضيعه علينا ؟ هل يعمر بيوتنا أم يخربها على رؤوسنا ؟ هل يرضى ربنا أم يسخطه علينا ؟ هل يجعلنا أمة قوية أم هو يذهب بقوتنا ؟

وإذا سلمنا جدلاً بأن من الخير مشاركة الطالبات الطلاب فى أفراح الجلاء ، فهل يشترط فى هذه المشاركة أن يكشفن سيقانهن وأفخاذهن ؟ وأن ينتخب لذلك الجميلات منهن لا النابغات ولا الذكيات ؟ وإذا لبسن الجوارب الساترة والثياب الطويلة أيبطل رواء الاحتفال وتذهب بهجته ؟ أم أنتم تريدون النظر إلى أفخاذهن بحجة المشاركة فى أعياد الجلاء ؟

وإذا حسن أن نقوى بالرياضة أجساد الطالبات فهل يشترط لهذه التقوية أن يختلطن بالرجال ؟

لا والله . أحلفها يمينًا غموسًا وأضعها فى عنقى .

إنكم لا تريدون الصحة ولا الرياضة ولا المشاركة بالعيد . إنما تريدون التلذذ

بمرأى أجساد بناتنا باسم العيد والرياضة والصحة . إنكم لصوص أعراض . ولكن ليس الحق عليكم . الحق علينا نحن آباء الطالبات والطلاب . فنحن عميان لا نبصر ، خرس لا ننطق ، حمير لا نغار] ا . هـ .

• • •

إجمال هذه الآداب

اجتمع متكلمان . فقال أحدهما للآخر : هل لك فى المناظرة ؟

فقال على هذه الشروط : ألا تغضب . ولا تتعجب . ولا تشغب . ولا تحكم . ولا تُقبل على غيرى وأنا أكلمك . ولا تجعل الدعوى دليلا . ولا تجز لنفسك تأويل مثلها على مذهبى . وعلى أن تؤثر التصادق . وتنقاد للتعارف وعلى أن كلامنا يبغى من مناظرته على أن الحق ضالته . والرشد غايته] .

من سمات المتقين : أنهم :

أ ـ ينفقون : يجددون الإيمان بالإنفاق . فالإيمان الجامد : ميت .. أو سوف يموت .

ب ـ يكظمون الغيظ .. ويعفون عن الناس . أنفسهم كالمرايا تعكس صفاء الحياة وجمالها .. ترى فى وجوههم من البِشر ما يُؤْذن بزوال القهر .. وبزوغ الفجر .

وقد تراهم متواضعين مخبتين .. يمشون على الأرض هونا .. ولكن همتهم هناك فى الأعالى تدور فى فلك الشمس ! فكن على سمتهم .

ولا تنفعل .. فإن الانفعال خطاب المغلوب وأنت الغالب .. بالحق .

وإذا كان الحق معنا .. فلنفكر بهدوء .. ذلك بأن أسلوب الهدوء وإن كان طويلا .. لكن الوصول عن طريقه ليس مستحيلا .

لا تخف .. لا من الرأى الآخر .. ولا تخف على رأيك .

وعليك بالحوار سبيلا إلى الفهم .. ثم إلى التفاهم . والذى تُذهب به سوء الظن .. حتى ترى الآخر .. ويراك ..

وعند ذلك .. سوف تتحول أفكارك إلى أسلاك كهربية .. تحدث التغيير المطلوب فى قلوب شانئيك .

• • •

مغـزى الحـوار

فى الحوار معنى « الحُسْن» لأنه مأخوذ من مادة « حور » .

قال الزمخشرى : [وحاورته .. راجعته الكلام .. يقال : وهو حَسَن الحوار] .

طبيعة الحوار :

لا يكون حوار حتى يكون بين أكثر من طرف .. وليس هو محاضرة أو خطبة .. ثم إنه : اعتراف بالآخر ..

هذا « الآخر » الذى يفيد القضية بحواره :

١ ـ قد يطرق أبوابًا لم تطرقها .

٢ ـ ويدخل بك أبعادًا .. لم تكتشفها .

٣ ـ والاستماع إلى الطرف الآخر .. يعنـى : إقرارك بأن هناك رأيا غير رأيك .. وهذا بحد ذاته من أمهات الفضائل .. لأننا نتجاوز به الأثرة .. إلى التحلى بفضيلة الإيثار .

وإذا قالوا : كل ضدين مختلفان .. فلا يعنى ذلك بالضرورة أن كل مختلفين .. ضدان ! ألا إنه الحوار باللسان .. لا بالسنان .. حوار يشترك جميع الأطراف عن طريقه فى صنع القرار .

ثم هو شاحذ ملكة الابتكار .. فنحن لا نَسْمع الطرف الآخر فقط . وإنما نتجاذب معه بل ونشجعه .. أى : نتفاعل معه حول الفكرة المعروضة .. خروجا من مجرد التلقى السلبى .. والذى يثرى القضية التى ندور حولها بآرائنا .

يقول بعض الباحثين : [وإذن فالحوار تلاحم .. وتفاعل .. وليس مجرد التلقى لوجهة النظر الأخرى .. إنها عملية تفاعلية تكاملية .. بل مشروع قومى للشعوب .. كى تخرج من رتابة التلقى السلبى من الآخر ..

إلى جانب الفرار من تكدّس الأفكار .. ودرءِ كافة التوترات الاجتماعية والسياسية .. وتداعيات ذلك على الأمن القومى .

فلنكن مع الحوار تحت أشعة الشمس المشرقة . فى الهواء الطلق . لأن رفض الحوار يعنى : أنك مع خنق الأنفاس .. والعيش وراء الكواليس والغرف المغلقة . وأجواء الظلام . وأن تكون من دعاة تسطيح الأمور والوقوف عند القشرة البادية .

ويعنى أنك مع الحوار : أنك تريد بآرائك أن تكون فى المرتبة العليا . وأنك تبحث عن تكامل فكرتك ومشروعك .. ولا تريد فرضه على الآخرين بالقوة .

إن الذين يقفون ضد فكرة الحوار بحجة أن ذلك تنازل عن حقهم المشروع ولهؤلاء نقول : تذكروا أنكم لا تملكون الحقيقة كلها أبدا .

ومهما سعيتم .. فلن تنالوا هذه الدرجة من الكمال . وإذا ما افترضنا ذلك جدلا .. فإن ذلك لن يتحقق أصلا إلا عن طريق الحوار ؟! وبفضل تعلم فضيلة الاستماع ! وإن قولكم : إننا نخاف من أخطار الحوار . فإن قولكم هذا كمن يريد مَنْعَ التنفس عن الناس بحجة أضرار الغبار !

إننا بالحوار نحيا .. وفى غيابه نموت .. بالحوار نؤسس المجتمعات حيَّة .. وفى غيابه : تدفن المجتمعات وهى حية ! بالحوار : نحيى الميت من أطراف الجسم. وفى غيابه نطلق رصاصة الرحمة على ما تبقى من حياة فى جسم الأمة] .ا .هـ.

أما بعد :

فهناك الدرس الأعظم .. وهو الإيجاز والإعجاز القرآنى فى عرض القضية عرضا .. قد يكون الحذف واحدا من مظاهره .

قال عبد القاهر فى مقدمة باب الحذف : [وهو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ . عجيب الأمر . شبيه بالسحر .

فإنك ترى به ترك الذكر .. أفصح من الذكر . والصمت عن الإفادة .. أزيد بالإفادة وتجدُك أنطق ما تكون .. إذا لم تنطق . وأتمَّ ما تكون بيانا .. إذا لم تبن] (١).

وبعد .. بعد !

فقد قال الشاعر العربى :

لا تحقرن الرأى وهو مـــوافق حكم الصواب .. إذ أتى من ناقص

فالـــدُّرُّ وهو أعز شىء يُقتنـى ما حـــط قيمتـــه هـــوان الغائـــص

• • •

من ثمرات الحوار

١ ـ القدرة على الموازنة ثم الاختيار من خلال الآراء المتناظرة .

٢ ـ إنعاش غريزة حب الاستطلاع وخاصة لدى الأطفال الذين يحرضهم حوار الكبار على إفراغ ما فى جعبتهم من أسئلة .. بمعنى : انحلال عقدة الخوف.

٣ ـ إذا بدت المسافة واسعة ـ قبل الحوار ـ بين المتحاورين ، وبدا التقارب مستحيلا .. فإنها فى النهاية تضيق .. على نحو يؤكد إمكان لقاء المتباعدين على

---

(١) دلائل الإعجاز .

أرض مشتركة .

ولو بقيت المسافة واسعة بيننا : فلا تفاهم .. فلا ثمرة .. إلا الثمرة المرة وهى : اتساع شقة الاختلاف .. وتراجع الدعوة .

إن المدح بإطلاق .. ليس من الحكمة .. وكذلك الذم بإطلاق . إن للقمر : وجهه المشرق . وله فى نفس الوقت وجهه المظلم .

ومن أجل ذلك .. فقد تجاوز من قال :

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى اتباع من خلف

أما بعد :

فإنه لم تذكر كلمة « العقل » مجردة فى القرآن الكريم ولكن الذى ذكر هو : التدبر ، والتفكر ، والتبصر ، والتعقل . وذلك .. تحريضا للمتلقى على التدبر والتفكر ليظل دائمًا : طموحًا مبتكرًا .. لا مجرد وعاء لحفظ الأفكار .

إنه من الأهمية بمكان أن تكون حراصًا على : كسب القلوب .. لا كسب المواقف .

• • •

obeikandl.com

نماذج وصـــور

[ولعل من أفضل ما نسوقه مثلا للتحدى ما جرى للإمام أحمد بن حنبل فى محنة خلق القرآن فقد استدعى والى العراق إسحاق بن إبراهيم وجوه العلماء والفقهاء ليأخذ إقرارهم جميعًا ويبعث به إلى المأمـون ، فأقروا بما طلب إليهـم ماعدا أربعة أمر بهم فشدوا فى الحديد وفى اليوم التالى أجابه اثنان وامتنع أحمد ابن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما إلى المأمون فى طرسوس وفى الطريق عبر ابن جعفر الأنبارى الفرات وذهب إلى حيث كان أحمد بن حنبل وسلم عليه فقال له أحمد : يا أبا جعفر تعنيت . فقال : ليس فى هذا عناء . وقال له : أنت اليوم رأس والناس يعتقدون بك فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله . وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير . ومع هذا إن لم يقتلك المأمون تموت . ولابد من الموت فثق بالله ولا تجبهم إلى شىء قال : فجعل أحمد يبكى ويقول : ما شاء الله ما شاء الله ثم جاءهم الخبر بموت المأمون. ومات محمد بن نوح فى الطريق فاستراح وذهب إلى ربه راضيا مرضيا .

وفى سجن أحمد الذى طرح فيه ثمانية وعشرين شهرا بقى صامداً فلم يغير رأيه ولم يبدل موقفه واشتدت عليه المحنة وبلغت أقصاها ودخل عليه عمه يقول : يا أبا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله وبقيت أنت فى الحبس والضيق . فقال أبو عبد الله : يا عم : إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل متى يتبين الحق ؟ فذكر له ما روى فى التقية من الأحاديث فقال : كيف تصنعون بحديث خباب ؟ « **إنه كان من قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه** » فبئس منه .

ثم قال أحمد : لست أبالى الحبس ما هو إلا ومنزلى واحد ولا قتلا بالسيف. إنما أخاف فتنة السوط وأخاف أن لا أصبر . فسمعه بعض أهل الحبس وهو يقول ذلك فقال : لا عليك يا أبا عبد الله ما هو إلا سوطان ثم لا تدرى أين يقع الباقى فلما سمع ذلك سرى عنه .

وعندما مثل بين يدى المعتصم ورفض الانصياع لرغبتهم فى القول بخلق القرآن وطال المجلس أمر المعتصم أن يأخذوه وتقدم الجلاد فلما ضرب أحمد سوطه قال: بسم الله ، فلما ضربه الثانى قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . فلما ضربه الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، فلما ضربه الرابع قال : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . واستمر الجلد مائة وخمسين سوطا حتى أغمى عليه وعاد الإمام إلى بيته يقول : والله لقد أعطيت المجهود من نفسى ولوددت أنجو من هذا الأمر كفافا لا على ولا لى .

ولما جاء الواثق أصدر أمره لأحمد : (لا تجمعن إليك أحدا ولا تساكنى فى بلد أنا فيه) فأقام الإمام أحمد فى داره لا يخرج إلى صلاة ولا يشهد جنازة ولا يلقى درسا حتى مات الواثق .

وصارت مسألة خلق القرآن حديث كل الناس وتندر بها البعض .. ومن طريف ما يروى فى ذلك أن عبادة المضحك دخل يوما على الواثق فقال : يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن ؟ فقال : ويلك القرآن يموت ؟ قال : يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت . بالله يا أمير المؤمنين بم يصلى الناس التراويح ؟ فضحك الواثق وقال : قاتلك الله أمسك .

ولما وصل الحال إلى هذا الحد خفف الواثق من غلوائه .

- وما أن تولى المتوكل الحكم حتى فك المسجونين وأكرم المتضررين ونهى عن القول بخلق القرآن ؟

وإليك مثلا آخر لحوار رائع بين الحجاج بن يوسف الثقفى بما اشتهر عنه من ظلم وبين العالم الجليل سعيد بن جبير وهو من التابعين وكان قد خرج على بنى أمية وانضم إلى الخارجين عليهم ثم قبض عليه وأدخل على الحجاج متهما بشق عصا الطاعة فسأله الحجاج متجاهلا : من أنت ؟

قال : سعيد بن جبير .

قال الحجاج متهكما : بل شقى بن كسير .

قال سعيد : أمى كانت أعلم باسمى واسم أبى منك .

قال الحجاج : شقيت وشقيت أمك .

قال سعيد : الغيب يعلمه غيرك .

قال الحجاج : بالدنيا نار تلظى .

قال سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا .

قال الحجاج : فما قولك فى محمد ؟

قال سعيد : نبى الرحمة وإمام الهدى .

قال الحجاج : فما قولك فى على : أهو فى الجنة أم فى النار ؟

قال سعيد : لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها .

قال الحجاج : فما قولك فى الخلفاء .

قال سعيد : لست عليهم بوكيل .

قال الحجاج : فأيهم أحب إليك ؟

قال سعيد : أرضاهم لخالقى .

قال الحجاج : أيهم أرضى للخالق .

قال سعيد : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم .

قال الحجاج : أحب أن تصدقنى .

قال سعيد : إن لم أحبك لم أكذبك .

قال الحجاج : فما بالك لم تضحك .

قال سعيد : وكيف يضحك مخلوق من طين والطين تأكله النار .

obeikandl.com

قال الحجاج : فما بالنا نضحك ؟

قال سعيد : لم تستو القلوب .

ثم أمر الحجاج أن يعزفوا بالعود والناى فامتعض سعيد ، وأمر بالخروج فخرج يضحك فاستدعاه الحجاج وسأله : لم تضحك ؟

قال : من جراءتك على الله وحلم الله عليك .

قال الحجاج : ويل لك يا سعيد

قال سعيد : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار .

قال الحجاج : اختر يا سعيد أى قتلة أقتلك .

قال سعيد : اختر أنت لنفسك فوالله لا تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة .

قال الحجاج : أتريد أن أعفو عنك ؟

قال سعيد : إن كان العفو فمن الله وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر .

وإلى هذا الحد يلتفت الحجاج إلى زبانيته فيأمرهم : اقتلوه . فيقول سعيد : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين .

قال الحجاج : وجهوه لغير القبلة .

قال سعيد : فأينما تولوا فثم وجه الله .

قال الحجاج : كبوه على وجهه .

قال سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .

قال الحجاج : اذبحوه .

قال سعيد : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، خذها منى حتى تلقانى بها يوم القيامة ، اللهم لا تسلطه على

أحد بعدى .

وينتهى الحوار وتصعد روح العالم الجليل إلى مولاها تشتكى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

ومن طرائف الأجوبة المسكتة : أن أحد الدعاة كان يحاضر فى جمع من النساء عن تعدد الزوجات فى الإسلام . وأفاض فى الحديث بموضوعية وإتقان واستيعاب واستعان بالأرقام والإحصاءات . وأورد الحجج العقلية والنقلية . لإثبات فوائد تعدد الزوجات إلا أن عددا من الحاضرات لم يقتنعن وأخذن فى اللجاج والجدل العقيم . فرأى المحاضر أن يسكتهن بطريقة أخرى . فقال لهن : فى الحقيقة أن المسئول الحقيقى عن تعدد الزوجات هو المرأة لا الرجل . فلما استغربن ذلك وأنكرن عليه . . قال لهن : لو أن كل امرأة رفضت أن تكون زوجة ثانية لما كان هناك تعدد زوجات .

وفى التاريخ أن رجلا ناظر مجموعة من الملاحدة الذين يقولون بالمصادفة وينكرون وجود الله عز وجل . فلما طالت المناظرة وكثر الجدل دعاهم إلى لقاء آخر لإكمالها على أن يكون هناك شهود يحكمون من تكون له الغلبة . ولما جاء موعد اللقاء الجديد . . جاء متأخراً ، والجميع ينتظر فأخذوا يلومونه . فقال لهم: دعونى أشرح لكم ما الذى أخرنى فلعل لى عذرا . تعلمون أنى أقيم فى الطرف الآخر من المدينة حيث يفصل النهر بيننا . وحين وصلت النهر لأعبره إليكم لم أجد سفينة تحملنى فكان هذا هو سبب التأخير .

فقال له قائل : وكيف جئت بعد أن لم تجد سفينة ؟

فقال : واتانى الحظ وأسعفنى المصادفة ، مر لوح خشب يطفو على النهر فتوقف أمامى ، ثم جاءت مجموعة ألواح أخرى التقت باللوح من جهاته الأربعة بشكل عمودى ثم قذف النهر بحبال غليظة التفت حول الألواح بإحكام حتى ثبتتها، وهكذا وجدت نفسى أمام سفينة صغيرة عبرت بها النهر إليكم .

قالوا له : ويحك ، أتضحك علينا ؟ إن هذا أمر مستحيل .

قال لهم : خسرتم وأقررتم على أنفسكم . أبت عقولكم أن تصنع المصادفة سفينة صغيرة ، وسمحتم لها أن تصنع هذا العالم المعجز ، وهو أعقد من السفينة وأحكم وأكبر وأتقن !!

ومن الأجوبة المفحمة ما يروى ، من أن شابا توجه إلى أحد الدعاة بالسؤال التالى :

أتسمح لى يا أستاذ ؟ لماذا أرسلت لحيتك ولا زلت فى ريعان الشباب ؟

فرد عليه الداعية قائلا ولم حلقتها أنت ؟

فأجاب الشاب : أنا حر .

فقال الداعية : وأنا لست عبدا .

فقال الشاب : لكن إرسال اللحية غريب بالنسبة لك .

قال الداعية : بل الغريب هو حلقها . أنا تركتها تنمو ولكنك أنت الذى يجب أن يسأل عن حلقها .

قال الشاب : ليس كل شعر الجسم يحلق ، ولا كله يترك .

قال الداعية : مثل ماذا ؟

قال الشاب : مثل شعر الرأس فهو يترك وغيره من الشعر غير المرغوب فيه يحلق .

قال الداعية : أنا اخترت أن يكون وجهى مثل رأسى .

فضحك الحاضرون وخجل الشاب وانصرف[1] .

• • •

(١) عبد البديع صقر ـ كيف ندعو الناس ص٧٣ .

من أقوال المجددين

كلّ من لا يتأمل ولا يتروَّى فى الجواب .. يأتى كلامه غالبا .. غير صواب.

كل من يتجادل مع أعلم منه .. ليُعرف أنه عالم .. يُعرف أنه جاهل !

لا حوار إلا باللسان فقط : فلا تضرب « المنضدة » بيدك » ذلك بأنه : حوار المناوبة .. وليس حوار المناهبة ! لا ينبغى أن يستأثر طرف بالكلام !

إن الإسلام حريص على نظافة البيئة .. حتى يثمر الإيمان ثمراته .. فى هذا الجو الطهور .

إنه حريص على نظافة البيئة المادية .. حفاظًا على الأجسام ..

وهو كذلك حريص على نظافة البيئة الفكرية من الشبهات ، حفاظا على العقول ..

وهو حريص أيضًا على نظافة البيئة الوجدانية حماية للقلوب من القلق .. والكراهية ... ولكن بعض الدعاة لا يريدون الحوار .

وتتأمله .. فإذا هو كالطائرة المحملة بالصواريخ . ولكن الصواريخ .. مكدسة .. بينما هو لا يملك الطاقة لإطلاقها .. كما وأنه لا يقدر على تسديدها فى المرمى ؟!

وقد تسمع ضجيجًا .. لكنك لا تجد دقيقًا .. وكان عليه أن يتعلم من الطبيعة حوله ..

فالغيث : أهنؤه الذى يَهْمى وليس له رعود !

وقد يكون من قدر الدعاة أن ينالهم الأذى من هؤلاء .. فليكن .. ولكن.. لنتعلم من الطبيعة من حولنا :

يحمل النهر الماء العذب .. والصخور .. ثم يقذف بها فى البحر الذى

يفرزها .. ثم ليحول الرمال .. والصخور إلى لؤلؤ ومرجان .. وما شاء الله من معادن .

وهذا هو دور الداعية الذى يستثمر كل ما فى الموقف لخدمة الدعوة منحيًا هواه ومزاجه الخاص .. مستعينا بعلمه وخبرته .

فى أوائل القرن الماضى عبرت الغواصة الضخمة المحيط المتجمد ! ولما أنكر الناس على الملاح ذلك قال لهم : إن العلم يقول : كلما تجمد الماء .. قلّت كثافته .. ثم يرتفع إلى فوق ..

وقد هدانى ذلك إلى الانطلاق من تحت الثلج الطافى .. فوصلت إلى هدفى.. وهكذا ..

وإذا كانت أنثى العقرب .. وكانت أنثى العنبكوت .. وأنثى بعض الأسماك..

إذا كان من شأنها أن تقتل الذكر فإننا فى الدعوة لا نريد قتله .. فليس ذلك من أهدافنا .. وإنما نروّضه !!

جاء فى الكفاية :

ـ يلزم الخشوع ، والتواضع ، ويقصد الانقياد للحق ، فيكون من جملة من ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر:١٨] فإنهم الذين وصفهم الله سبحانه بالهدى من الله سبحانه ؟!

ـ ولا تعوّدْ نفسك الإسهاب والجدال بالباطل والمبادرة إلى كل ما سبق إليه الخاطر واللسان .

حتى إذا أورد ما أورده أو سمع ما سمعه ، يكون فى جميعه على التثبت والتيقظ .

ـ فإن الكلام إذا طال واشتمل على الغثّ والسمين ، مجّته الآذان ، وملّته

القلوب .

ـ ولا يُسرعْ فى مكالمة من يستشعر فى نفسه منه العداوة والبغض إذا لم يأمن على نفسه بقدر الحَدِّ والرَّسمْ فى النظر باشتداد الغضب فيورثه تشوشَ الخاطر والعِىّ .

ـ واحذرْ الاعتماد فى كلامك على من تظن أنه معك أو يستحسن كلامك فى جملة الحاضرين فربما تبيّن لك خلافهُ فيضعف ذهنك وخاطرك ويذهبُ عنك كثير مما لا تستغنى عنه .

ـ والتقرب إلى الله سبحانه يجب أن يكون بحيث يمنعك عن الالتفات إلى الحاضرين خالفوك أم وافقوك فإنه سبحانه عند ذلك يكفيك المُهمّ ويعينك فى تقوية ذهنك . وتصفية فهمك وإمداد خواطرك والكشفِ عن الحق على لسانك .

ـ وإياك والكلام فى مجالس الخوف والهيبة فإنك عند ذلك فى حراسة الروح على شغل من حراسة المذهب ونصرة الدين .

ـ وتجنّبْ مَجلس صَدْر لا يسوِّى بين الخصوم فى الإقبال والاستماع وإنزال كلٍّ منزلته ورتبته ؛ فإن الكلام بين يدى مثله : سخف ودناءة واحتمال الذّلّ والصغار إذا رضيت به وموروث الغمِّ والغضب إذا لم ترض .

ـ وتوَق فى الكلام مجلس صَدْر هيبته تقطع خاطرك وتكدر قريحتك ؛ فلن تجتمع الهيبة وصحة القريحة فى قلب بمحال ؛ لأن الهيبة مقرونة بالخيبة ـ وله قيل: من هاب خاب .

ـ وتوقّ مجالس الصدور الذين قصدُهم بما يسمعون التلَهّى لا تمييزَ الحق عن الباطل وابتغاء نصيحة الله ونصيحة رسوله فى الدين وتبيين الحق ومعرفته ـ فإن فيه أقل شىء : مجالسة من لا يَحْسُن بأهل العلم والدين مجالستُه .

ـ وإياك واستصغار من تناظره والاستهزاء به ـ كائنًا ما كان ـ لأن خصمك ـ إن كان ممن المفترض عليك فى الدين مناظرته : فهو نظيرك ـ ولا يجمل بك إلا

مناظرة النظير للنظير .

ـ وإن يكَ من تكلمه غيرَ أهلٍ لأن تناظره كان الواجب ألا تفاتحه بالكلام ؛ فإذا فاتحته ثم استصغرته واستخففت به لم يجتمع ذهنك ولا صفاء قريحتك ولا اشتد خاطرك ؛ فربما يتفق له لشؤم حالك عليك ما لا قبل لك به .

ـ وعليك بالمحافظة على قدرك وقدر خصمك وإنزال كل أحد فى وجه كلامك معه : درجته ومنزلته ؛ فتميِّز بين النظير وبين المسترشد ، وبين الأستاذ ومن يصلح لك .

ولا تناظر النظير مناظرة المبتدئ والمسترشد .

ولا تناظر أستاذك مناظرة الأكفاء والنظراء ؛ بل تناظر كلا على حقه ، وتحفظ كلا على رتبته .

ـ وكن مع خصمك مستبشرا مبتسمًا غير عبوس ؛ فتكون أنت وخصمك عند ذلك عن دواعى الغضب والضجر : أبعد .

ـ وعليك أن لا تفاتح بالمناظرة مَنْ تعلمه متعنتًا ؛ لأن كلام المتعنِّت ومن لا يقصد مرضاة الله فى تعرّف الحق والحقيقة بما تقوله : يورث المباهاة والضجر وحُزن القلب ، وتعدِّى حدود الله سبحانه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وإن لم تعلمه كذلك حتى فاتحته بالكلام ثم عَلمتَه عليه : وجب عليك الإمساك عن مناظرته ـ فإن رأيت نصرة دين الله سبحانه فى الإمساك عنه : زدت فى الحدِّ وبالغت فى التحرز عنه .

ولا تتركْ ما قدرت عليه من المضايقة ، ولا تتق شُنعة تجد إليها سبيلا إلا وقد ألحقتها به ؛ لأنك إن ساهلته فى شىء ربما يروج له كلام فى فصل فيضايقك ويشنِّع عليك بما يصعب عليك التقصِّى عن أمره ، وإزالة إيهامه .

ولأنك إذا ضايقته فى كل معنى وعبارة : ضَعُف قلبه فى بُدوّ النظر ؛ فلا يروج له شىء بعدها .

وبمثله تُعامِل مَن قصده بالكلام : المباهاة .

وعلى العكس من هذا : تُعامل المبتدى المسترشد الذى قصْده التبين والتعرف للحق ، حتى لا تدع من التلطف والتساهل والكشف والبيان والتقريب شيئًا إلا وتأتى به .

لأنه كلما بالغت فى المساهلة معه ازداد طمعا فى تفهم الحق وازداد حرصا ومواظبة عليه ـ إلى أن يوافقه الله سبحانه للهداية .

ـ وإن كان خصمك منتهيا عالما يقصد المناظرة ، واستبانة ما التبس ؛ فلا تعمّق فى العبارة ؛ فإنك تطوّل عليه وعلى نفسك الأمر ؛ بل تقصد بأسهل العبارات إلى نكتة الحكم ، وما هو المعتمد ؛ ليكون أبعد عن الاشتغال بما يعنيه .

ـ ومتى علم مِن خصمه قصدَ الحق وطلبَ الصواب والهداية ـ منّتهيًا كان أو مسترشدًا ـ مكنه من إيراد جميع ما يريد إيراده فإنه يجوز أن يكون موضع الالتباس عليه : ما يظنه أظهر الأشياء فسادًا ووهاء ، فإذا كشف من جميع ما يورده ، وضرب الصحيح من الفاسد : أوفيت حق الله سبحانه من جدالك .

ـ وعليهما جميعا أن يصبر كل واحد منهما لصاحبه فى نوبته وإن كان ما يسمعه منه شبه الوسواس ؛ لأنهما متساويان فى حق المناوبة ؛ فمن لم يصبر منهما لصاحبه : فقد قطع عليه حقه .

ولأن ما يظنه السامع وسواسًا ربما يكون هو موضع الالتباس والشبهة عنده ؛ فلابد من الصبر على سماعه ليصير عنده معلوم الأول والآخر .

ثم يتكلم فيه بعده على حقه وإن كان فيما يصح ال[illegible] صنوان كان فيما لا يفهم منه شىء بيّن فى نوبته أنه مما لا يلزمه الكلام عليه .

obeikandl.com

ومتى لم يصبر له خصمه بل داخله بالاعتراض أو الجواب فى نوبته احتمله ووعظه ؛ فإن أصرّ عليه : قطع مكالمته .

وإن حكم الجاهل من الحاضرين عليه بالانقطاع ؛ لأنه إنما افترض عليه الكشف عن الحق والأمر بالمعروف مع القدرة ولا سبيل إليه مع التقطيع ؛ بل يصح ذلك مع حسن الاستماع .

وهكذا يقطع مكالمته من يرى التعجب من كلامه ؛ لأن ذلك من عادة من لا يقصد الخير والتحصيل بالمناظرة .

ـ وعلى كل واحد منهما أن يُقبل على خصمه الذى يكلمه بوجهه فى خطابه المتكلم فى كلامه والمستمع فى استّماعه .

فإن التفت أو أعرض عنه فى الاستماع أو الخطاب وعظه ؛ فإن لم يقبل قطع مناظرته .

لأن ترك الإقبال وحسن الاستماع يشغل قلبَ المتكلم والمستمع ؛ فتنقطع عليه مادة الفهم والخاطر ؛ ولا تبالى بمن يحكم عليك بالانقطاع ؛ لأن أهل التحصيل يعلم ذلك ؛ ولا مبالاة بأهل الجهل والغباوة .

ـ ولا تكلم الأستاذ إلا على ضربين : الاسترشاد ، مع غاية الاحترام والتواضع وخفض الصوت وقطع اللجاج عند ظهور الرشد أو الضجر منه وتلاطفه بكل ما تملك وتعطيه مراده فى كل ما يطلبه عنك فى ذلك .

ـ وإياك أن تتعلق عند الاستدلال إلا بأقوى ما فى المسألة ، ولا يغرنك ضعف السائل ؛ فربما يكون فى الحاضرين من يُضيّق بقوته فى العلم عليك الدنيا .

وقد يتضح للخصم الضعيف عند التعلق بالشىء الذى لا يقوى فى الاحتجاج ما يَصْعُب عليك الخروج منه !

ولأنك إذا تعلقت بأقوى ما فى المسألة ، راح بعده ما هو أضعف منه ـ وإذا تعلقت بالضعيف : احتجت بعده إلى وضع القوى موضع الضعيف ؛ فيذهب عند ذلك رونق نضرة الحق وبهائها !

ولأنك إذا قدمت الضعيف : استرذل الحاضرون كلامك فيضعف خاطرك بعده عن إيراد ما هو أقوى منه ـ إذا لم يستحوذوا فى الأول كلامك ؛ فتترك جميع ما تقوله عندهم ؛ فلا تظهر نضرة الحق ؟

ولأنك إذا بَدَهْتَ الخصم بأقوى شىء فى المسألة : هابك فى الاحتجاج ؛ فتؤثر هيبته تلك فى تجنبه شبهته وتقوية بدعته .

ـ ولا تسامح الخصم إلا فى موضع يعلم يقينا أن المسامحة فيه لا تضرك ـ لأنه طالما قيل المسامحة فى المناظرة شؤم .

ـ وعليك بمراعاة كلام الخصم ، وتفهُّم معانيه على غاية الحد والاستقصاء ؛ فإن فيه أمانا من اضطراب ترتيب فصول الكلام عليك ؛ فيسهل عليك عند ذلك وضع كل شىء موضعه .

وفيه أيضًا أمان من تلبيس الخصم والذهاب عن تزويره ولا تمكنه من جمع القصور عليك فى الأسئلة والأجوبة ؛ فإنه يؤدى إلى انتشار الكلام، واختلاط مواضع النكتة ، والتباس موضع الحق بغيره .

وإن طوّل عليك كلامه بعباراته الطويلة ـ فلخصْ من جميعها موضع الحاجة إليه فتحصره عليه ـ ثم تكلم فيه بما يليق به .

لأنك إذا فعلت ذلك زال ما أوهم به الحاضرين من إيراد العلوم الكثيرة ؟

وإذا لم تحصرْ عليه موضع الفائدة ـ موّه عليهم تقصيرُك ؟

ولأنك إذا أحصرت عليه فى كلامه ألفاظه ومعانيه وأخذت إقراره فى كل ذلك فقلتَ : ألست قلت كذا ، ومعناه كذا ؛ لم يمكنه الهرب مما يلزمه عليه من

كلامك ، ولا الرجوع .

وإذا لم تفعل ذلك ـ ربما ناكرك عند الإلزام ، فتسد مواضع الخلل حين تنّبه له عند الإلزام ؟!

ـ وإياك أن تلزم خصمك ما لا تتحققه لازما ؛ فإنه إذا انكشف لك وللحاضرين سقوطه عن فوره : سقطت عن أعين الحاضرين فتضعف عند ذلك عن نصرة الحق .

ـ ولا تقصِّرْ في تنبيه الخصم وإعلامه ما ترى من مناقضاته في كلامه .

وهكذا إذا رجع فيما سلَّم : نبهته عليه ؛ لأنك إذا لم تعامله بذلك تركت معظم المقصود من الجدل ، وعند ذلك لا تبين نصرتك للحق .

ـ ولا تُؤاخذ الخصم بما تعلم أنه لا يقصده من أنواع الزلل ؛ بل تعلم أنه يسبق اللسان ، ولما لا يخلو المتكلم منه ؟

فإن أشكل عليك قصده في ذلك نبهته ؟ فإن قال هو لسبق اللسان ولم أقصده؛ تجاوزته ، وإن علمته مقصودًا منه وآخذته به ؟!

ـ وإذا موّه عليك في شيء خرجت عن عهدته بتعبير عبارة أو تطويل كلام لم تغب بأن تعيد ما أجبت به أول مرة ، وتعرفه أن جوابه ما سبق ، ولم تأت إلا بتعبير عبارة عن معنى سبق الكلام عليه .

ـ ولا يهولنك إذا كان لك جواب واحد تعتمده في سؤالات له كثيرة قوله لك: إلى متى تعيد هذا الكلام ، وقد سمعناه غير مرة ؟

بل تقول إذا قال لك ذلك : إن الكلام الواحد إذا أتى على إفساد معان كثيرة ـ أو على عبارت شتى عن معنى واحد : كان ذلك في غاية القوة والصحة، لا وجه للعدول عنه إلى غيره .

ـ ولا توردْ في كل موضع من الكلام إلا قدر ما يحتاج إليه .

وهو نصيحة المشايخ ـ يقولون لأصحابهم ـ اتفقوا فى المناظرات بالمعروف .

وإنما قيل ذلك ؟ لأنه ربما تورد ههنا كلاما لا تحتاج إليه فيفسده الخصم عليك فى غير موضعه ؛ لأنه فى غير موضعه فيصعب عليك العود إليه فى موضع الحاجة .

ـ ولا تقدمْ من الجواب عما لم يورد عليك سؤاله ؛ فإنه تنبيه منك للخصم على الاحتراز ما لولا جوابك لما تنبه له ؛ فيصعب عليك جوابه إذا أورده مع الاحتراز ، وما لا يفهمون كلام خصمك استعدت ـ وإن احتجت إليه مراراً كثيرة؛ فإن فهمته ، فذاك . وإن لم تفهمه وعلمت أنه مما يصح العلم به ؟ استمهلته لتتفكر فيه ثم تفرغ وُسْعك فى التدبر والتفكر فيه ؟ فإن فهمته واحتاج إلى الجواب؟ تدبرته ، وتفكرْ فى طلب جوابه محتسبًا ؛ فإنه لا محالة إن كان مما ألزمك غير حق : يحضرك الانفصال ، ويمدك الله بالتوفيق والنصرة لمعرفة فساده.

وإن آية بطلانه وإن كان حقًا صحيحًا ؟ فلا أنفة من قبول الحق والانقياد له بأحسن الوجوه ؛ فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .

وليس للمجيب مع السائل إذا ألزمه منوالاً إلا أحد ثلاث : إما الانقياد أو الإسقاط أو الإعراض .

فأما الانقياد : فكل موضع ورد عليه ما يؤثر فى كلامه ودليله فعليه الانقياد لا محالة ؛ لأنه قد انكشف بسؤاله خطؤه فيما قال ؟!

وأما الإسقاط : فهو أن تبين خطأه فى سؤاله وتلبيسه والتباسه فالوجه فيه ـ على كل حال ـ إسقاط ذلك السؤال ؟!

وأما الإعراض عن مكالمته : فهو إذا عدل السائل عما يورد فى كلام المجيب ، أو ما يشتبه ويلتبس ، فلا وجه إلا الإعراض عن مكالمته لأنه إنما يجوز للسائل أن يورد من الكلام ما يقدح فى كلام المجيب أو ما يتوهم كونه قادحًا ، فيكون شبهة، ولا ثالث لهذين إلا المعارضة أو الاستعجال بما يعلم بنفسه بطلانه، وأى

ذلك كان فلا وجه لمكالمته .

- ومن أهل الجدل من جوّز أن يستعمل فى موضع الاعتراض دفع الخصم بالغلبة والصياح وإيراد النوادر .

وربما جوّز فى غير موضع الإعراض : تخجيل الخصم بالنوادر وقطع خاطره بالتهويل والصياح ، وليس ذلك من طريق أهل المروءة فى الديانة والتقوى فى طلب مرضاة الله سبحانه فيما يأتيه من تحقيق الحق وحل الشبه وتصفية دين الله تعالى عن الشوائب بطريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمجادلة بالتى هى أحسن .

بل ذلك من الجدل المذموم الذى ذمه الله سبحانه وذم صاحبه على ما بيناه قبل، وبالله التوفيق .

- وأحسن شىء فى الجدال : المحافظة من كل واحد من المتجادلين على أدب الجدل ؛ فإن الأدب فى كل شىء حِلْيته !

فالأدب فى الجدل يزين صاحبه ، وترك الأدب فيه يزرى به ويشينه .

ومعظم الأدب فى كل صناعة : استعمال ما يختص بها ، والاشتغال بما يعود نفعه إلى تقويمها والإعراض عما لا يعود بنفع إليها .

فما يعود بنفع إلى صنعة الجدل : المحافظة من كل واحد من المتجادلين على مرتبته ، ويعلم أن مرتبة المجيب التأسيس والبناء فلا يتعدى عن هذه المرتبة إلى غيره ، ومرتبة السائل الدفع والهدم .

فحق المجيب أن يبنى مذهبه الذى سئل عنه على أساس قويم وأصول صحيحة من الأدلة وغيرها .

وحق السائل ومرتبته فى سؤاله إن رام تصحيحًا أن يكشف عن عجز المسئول من بناء مذهبه على أصل صحيح .

أو بيان عجزه عن الخروج مما ألزمه مما له من القول الفاسد ، ومتى تم للسائل هذا فقد استعلى ، ويكفيه عن الاشتغال بأمر زائد يدل على انقطاعه .

وإن تم للمجيب بما أقام من البرهان على ما ادعاه تعجيز السائل عن القدح فيما أقام بنقض أو معارضة أو اشتراك فيما أقام فقد استعلى المجيب وانقطع السائل، وحقٌّ على كل واحد منهما أن يحفظ نفسه عن حيلة صاحبه عليه بما نكشف عنه من بيان الحيل فى بابه إن شاء الله عز وجل .

ـ وعلى المجيب أن يتأمل ما يورده السائل على كلامه ، حتى إن كان فيه شبهة توهم القدح فيما بناه ، وجب عليه الكشف بالجواب ؛ ليزول الإيهام .

وإن كان الشبهة مما لا يوهم ولا يبين منها هدم ما بناه : لم يلزمه الكلام عليه فى حق الجدل ؛ فإن فعل وكشف عنه كان متبرعًا .

وعلى السائل أن يتأمل انفصال المجيب عما ألزمه على ما بناه ، فإن كان فيه ما يوهم تحقيق ما بناه أولا ؟ كلمه السائل ، وإن لم يكن فيه تحقيق ما بناه ؟ لم يلزم السائل الكلام علة ؛ بل له أن يسكت عنه ؟ فإن اختار الكشف عن تمويهه ، كان متبرعًا .

أما بعد [1] :

ـ فأول شىء فيه مما على الناظر أن يقصد التقرب إلى الله سبحانه وطلب مرضاته فى امتثال أمره سبحانه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعاء إلى الحق عن الباطل وعما يخبر فيه ، ويبالغ قدر طاقته فى البيان والكشف عن تحقيق الحق وتمحيق الباطل .

ويتقى الله أن يَقصد بنظره المباهاة وطلب الجاه ، والتكسب والمماراة ، والمحك، والرِّياء ! ويحذر أليم عقاب الله سبحانه .

---

(١) عن الكافية فى الجدل .

ولا يكن قصده الظفر بالخصم والسرور بالغلبة والقهر ؛ فإنه من دأب الأنعام الفحولة : كالكباش والدِّيكة .

ـ وقبل أن يشرع فى الكلام يبتدئ بحمد الله والثناء له ، والصلاة على رسوله، فيستعين بذلك على طلب الحق ، والتوفيق فى الإبانة عن الباطل وبُطوله، والكشف عن الصواب وحقِّه ؛ فإنه سيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم .

وإن كان لا يتفق له ذكره باللسان ، فيقوله فى نفسه سرًّا .

ـ ويحذر رفعَ الصوت جهرًا زائدًا على مقدار الحاجة ؛ فإنه يورث الحِدَّة والضجر .

ـ ويتجنّب من أسباب الضجر والحدّة ؛ فإنه يُورث البلادة ، وإن كان يتوهمه جَلادة ، ويقطع مادة الفهم والخاطر .

• • •

obeikandl.com

فصل فيما يستعمل من ذكر الأمثال والحكم عند تعدى أهل الجدل بعضه على بعض

اعلم أنَّا قد ذكرنا : أن الاشتغال بما لا يليق بسيرة السلف ، ولا يحسن بالمناظر فى الجدل : حرام غير محمود .

وقد يضطر المتماسك إلى ضرب الأمثال ، وذكر النوادر أحيانًا ؛ وهو إذا رأى المُبطل الذى لا ينقاد للحق مقهورا للحق ؟ فله من ذلك ما لا يخرج عن الحد.

وقد ذكر الله سبحانه جملة من ذلك فى الرد على الكفار ، وبيان نقصهم وقصورهم عن أسهل شيء على الموفق .

فقال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] .

ـ وقد أورد كثير من مشايخنا من ذلك ما يدل على جوازه عند الحاجة إليه ـ ونحكى من ذلك قدرًا لا يطول الكتاب بذكره ، ولا يخلو الكتاب أيضًا عن طرف منه ؛ ليكون الكتاب جامعا لكل فن .

ـ فمن ذلك أن يقول عند إرعاد الخصم وإبراقه ، ومدح مذهبه ، واستحسانه فى تعظيم ما يورده : مثل ما قال سبحانه : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الانبياء: ١٨] .

ومثل قول الراجز :

عند الرِّهان يُعرف المِضْمَار ويعرف السابق والخـوّار

ومن ذلك أن يقول عند وهاء ما ادعاه الخصم : حجة ، وبطولها مثل قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١] .

أو يقول : مثل ما قال سبحانه : ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ

لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور:٣٩] .

أو يقول مثل ما قال سبحانه : ﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم:١٨] .

وإذا لم يسلم كلامه عن تهافت وتناقض إذا أصّل شيئًا رفعه فى الحال أو يمكن رفعه ببعض أصوله مثل ما قال سبحانه : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم:٢٦] .

وإذا رأى الخصم لا يلتئم له ما يرومه من الإلزام أو يتعذر عليه تحقيقه وتوجيهه قال مثل ما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠١] .

ـ وإذا استبشر بعلة أو دلالة ظنّها قوية ، يظهر لك نقيضها أو دفعها بشىء تمثلت بقول القائل :

فيالها من علة ما كان أضعفها قد صيرتك أبا شِبْلٍ من النَّاسِ

ولا يستحقر أحدهما صاحبَه بما يقع له من الخطأ فى مذهب أو دلالة أو غير ذلك ؛ فإنه إذا اغتر بخطئه ربما أصاب فيما لا خروج له عنه .

واستحقارُ الخصم كاستحقار يسيرٍ من النار ؛ فإنه ينتشر من يسيرها ما يحترق به كثير من الدنيا .

والمحافظة على ما ذكرتُ من تقوى الله فى نظره : يغنيه عن كثير من النصيحة ويبلغه إلى أسهل الطرق فى الهداية إلى الحق ، إن شاء الله عز وجل .

ـ وإذا رأيت الخصم أصحابه قد عاونوه وتشاغبوا وتزاحموا وأورد كل منهم ما يظنه دفعا لما أوردتَه فكشفت عن فساد جميع ما أورده حتى سكتوا ـ تمثّلت بقول جرير :

لما وضعت على الفرزدق ميسمَى وعلى البعث الجيش جدَعتُ أنف الأخطل

وإذا رأيتَ الخصم يتعمق ويدقق فلم يتحقق من تدقيقه ما يفهم ـ تمثلت بقول القائل :

ترك الواضح لا يبصره أحد فى ظلمات فدخل

وإذا رأيته لا يمكنه الإفصاح والعبارة عما يختلج فى صدره من المعنى : قلت ما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ [الأعراف: ٥٨] .

ـ وإذا قال ما يلجلج عنه لسانه : قلت : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ [الشعراء: ١٣] .

﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ [القصص: ٣٤] .

أو تمثلت بقول الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أنّ الحقّ تلقاه أبْلَجَا وأنك تَلْقَى باطلَ القول لَجْلَجَا

ـ وإذا رأيت نفسك منفرداً بين خصوم وكلهم مخالفوك ويقولون : غلبك بحشمة الكثرة فيهم : استظهرت عليهم بقوله سبحانه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

وإن شئت تمثلت بقول الفرزدق :

إذا اجتمعوا عَلَىّ فَخَلّ عنهم وعن ليثٍ مَخالِبُه دَوَامِـــى

ـ وإذا رأيت الخصم يتعاظم بسمته وحسن لباسه وخمله : تمثلت بقوله سبحانه : ﴿ أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٨] .

ـ وإذا رأيت فى الحاضرين من يَتَسَفّه . قلت : جوابُ الأحمق السكوت ؟! تمثلت بقول المتنبى :

وأتْعَبُ من ناداك مَنْ لا تُجيبه وأغْيَظُ مَنْ عاداك من لا تُشاكِلُ

ولو اخترت الرفق قلت : قال الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] .

وإذا رأيت من يعيب كلامك : تمثلت بقول المتنبى :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الجهل السقيـــم

ـ وإذا رأيت من يضحك عند كلامك : تمثلت بقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين:٢٩] .

أو تمثلت بقول الشاعر :

ضحكتُ من الشيء مستعجبًا وشر الشدائد ما يُضحـك

ـ وإذا رأيته لا ينقاد للحق عند ظهوره : تمثلت بقول الله سبحانه : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر:١٧، ١٨] .

وقلت قوله تعالى : ﴿... سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن:١، ٢].

وإذا رأيته يُغالب بعد ظهور الحق ، أو يستهزئ ، قلت : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال:٦] .

وقلت قول عمر رضي الله عنه : الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل !

ـ وإذا رأيت الخصوم يغالبونك بعد ظهور كلامك : تمثلت بقوله سبحانه : ﴿... وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت:٢٦] .

وبقوله سبحانه : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر:٥] .

وإذا رأيته يتكلم بما لا يستقر بعد فى قلبه أو لم يكن أحكمه : قلت : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦] .

وإذا رأيته يعاندك ويقول : هذا الذى تقول لا يساوى الإصغاء ، وأنك لا تفهم ما قلت .

قلت : هذا ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية:٧] .

وإذا احتاج إلى جواب يطيل الفكر فى تذكُّره ، ثم أورده فى غير وقته :

تمثلت بقول الكُمَيت :

* تنبّهَ بعد نومته نزار *

ـ وإذا علمت أنه فَهِمَ كلامك ولم يحضره الجواب .

ويستفهمك فيه ليتذكر شيئًا يجيبك به : قلت ما قال الله سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] .

ـ وإذا رأيته يكرر الفصل الواحد كثيراً، قلت : صبر السوءى سفر لا ينقطع.

ـ وإذا تهاون بكلامك وعَبَس ، أو أعرض عنك : قلت ما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ٢١ ـ ٢٤] .

ـ فهذه ضروب من الأمثال تستعين بها على دفع الخصم فيما يتعذر فيه رسْم النظر ، أو لا يقْصد بالمناظرة طلبَ الحق ، وابتغاء الرشد ؛ أو يقصد به التلهى والمباهاة ؛ فإذا أوردتَها أبرقته حرّاً لخجله ؛ فيتجنب المقاصد الذميمة إن شاء الله عز وجل :

وإن شئت أن لا تقابله بشيء من ذلك عند تَعدِّيه فاختر السكوت والإعراض عن مناظرة مثله ، وذلك خير ـ إن شاء الله عز وجل ـ وبالله التوفيق .

والذى لابدّ فى الجدل من المحافظة عليه والتحصيل فيه : تحصيل المقالة والدلالة وما تبنى عليه الدلالة وهو أصلها والإلزام والانفصال .

فمتى كان المجيب والسائل على تحصيل ومراعاة فى هذه الجملة : لم يكن عليهما غيرهما .

ـ وذكرنا أنه لابدّ من المحافظة على الغرض المقصود دون الجدل فى المسألة وتحصيل النكتة التى عليها مدار المسألة .

ولا سبيل إلى هذه المحافظة إلا بمعرفة ما هو الأصل ، ومعرفة كيفية البناء على ذلك الأصل والفصل بين أصل يحتاج إليه لنفسه وما يحتاج إليه لغيره ليلحق كل فرع بأصله .

ولا سبيل إلى ذلك إلا بعد معرفة حقائق الأصول ليجمع إلى كل معلوم يحدّه ما هو منه ويميز عنه ما ليس منه وأن يفصل بين ما يُطلب فيه القطع وبين ما يكفى فيه غلبة الظن ، والذى عليهما فى الألفاظ : فما كان منها من باب الحدود: راعيا فيه ما يليق بالحقائق والحدود من الألفاظ على ما بيناه من صونها عن الاستعارات ، وألفاظ الشركة على وجه يوجز فيدل على المحدود وحقيقته .

وإذا صارا إلى تحقيق العلل بالألفاظ : لخّصا فيها ما لابدّ منه فى تحصيلها من الألفاظ .

وإذا صارا إلى التقسيم : اجتهدا فى تحصيل القسمة العادلة بلا زيادة ولا نقصان ولا تداخل .

- وعليهما أن ينصفا فى حكاية كل واحد منهما كلام صاحبه من غير زيادة ولا نقصان إلا فيما يرجع إلى تطويل وتكرير فى العبارة .

• • •

من شروط الحوار .. في كتب التراث

الشرط الأول : أن يكون المتناظران على معرفة تامة بما يحتاج إليه كل منهما من قوانين المناظرة وقواعدها حول الموضوع الذى يريدان المناظرة فيه .

الشرط الثانى : أن يكون المتناظران على معرفة بالموضوع الذى يتناظران فيه ، حتى يتمكن كل واحد منهما من الإحاطة بعناصر القضية بكل جوانبها ، فإذا تكلم لم يخبط خبط عشواء ولم يناقش فى البديهيات بغير علم ، وإذا ألزم بالحق التزم به من غير مكابرة .

الشرط الثالث : أن يكون موضوع المناظرة مما يجوز أن يجرى فيه التناظر وتختلف فيه وجهات النظر ، فالمفردات والبديهيات الجلية لا تجرى فيها المناظرة أصلا .

الشرط الرابع : أن يجرى المتناظران مناظرتهما على عرف واحد ومصطلح متفق عليه ، فإذا كان كلام أحدهما جاريًا على عرف الفقهاء مثلاً فلا يجوز أن يكون كلام الطرف الآخر جاريًا على عرف النحاة ؛ لأن المناظرة فى هذه الحالة لا يكون فيها قاسم مشترك يجمع الطرفين ويحرر محل النزاع .

شروط المحاور :

أما المحاور فلابد أن تتوفر فيه الشروط التالية[1] :

١ ـ أن يتخلى عن النرجسية والأنانية ، لأن لجوء المحاور إلى رؤية الآخرين بمنظار معتم أو ضيق ، أو تجاهل رؤيتهم أحيانًا من خلال عدم الاعتراف بمهارتهم الفكرية إنما هى سياسة نرجسية ذميمة لابد من التخلى عنها ، ولا شك أن هذا المنظار الضيق يؤدى إلى ضعف الحوار واختناق مسيرته وغياب السجال والنقاش

---

(١) انظر : طه عبد الرحمن ، فى أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طـ١ (المغرب ـ الدار البيضاء : المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع ١٩٨٧م) .

العلمى عن واقعنا الفكرى .

إن ضوابط الحوار تقتضى وجوب التخلى عن النرجسية لأنها مرض نفسى غير مرغوب فيه ، كما أن من الضرورة أن يتخلى أطراف الحوار عن مبدأ تعظيم (الأنا) أو تضخيم الذات ، ليكون الحوار علميًا وفعالاً ، لأن الذاتية والنرجسية سياسة غير مجدية ، وليس هناك سبب منطقى يبرر اعتناقها من قبل فرد يحترم إنسانيته وشخصيته ويحترم شخصيات الآخرين .

٢ ـ أن يكون المحاور صاحب نظر وتفكير مستقل ، بحيث لا يكون مقلّدًا لغيره ، وفى هذا يقول الإمام الغزالى : « أن يكون اعتماده فى علومه على بصيرته ، وإدراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره . . فلا يسمى عالمًا إذا كان شأنه الحفظ من غير إطلاع على الحِكم والأسرار » [(١)] .

فالغزالى يعبر بهذا عن وجهة النظر الصحيحة فى الفكر الإسلامى للتعامل مع الطروحات الفكرية ؛ لأن تفاوت الأحكام عند عدم وجود النصوص أمر لا ينبغى التخوف منه ، بل من حقنا أن نستمد منه حرية عقلية وفكرية مطلقة ، ذلك أن الحكم الثابت بالنص لا مجال فيه للفكر والاجتهاد ولا مكان معه لحرية الرأى ، وإنما تتعدد الآراء وتتباين الطروحات فى الميادين السياسية والاقتصادية وأنواع المعاملات الأخرى التى أسهم فيها العقل البشرى بحظ وافر .

٣ ـ أن يكون المحاور سريع البديهة ، فإن من حسن المحاورة أن يكون المحاور ذواقًا للكلام ، مدركًا لأبعاده ، متجاوبًا مع العواطف ؛ لأن عدم التجاوب السريع مع الطرف الآخر قد يفوّت عليه الكثير من المعلومات التى ينبغى أن يتوقف عندها ويعالجها بلباقة وحنكة .

---

(١) الإمام الغزالى ، إحياء علوم الدين (القاهرة ـ دار الفكر العربى ـ ودار النيل ، بدون تاريخ) (١/ ٧٣) .

obeikandi.com

٤ ـ أن يحسن المحاور الاستشهاد بآيات القرآن الكريم فى الموضوعات الشرعية بحيث تتوفر لديه القدرة على فهم آيات القرآن وأحاديث النبى ﷺ فإن ذلك مما يعينه على ظهور الحق ، خاصة فيما يتعلق بمحاورة غير المسلمين .

يقول الدكتور عناية الله : خرجت يوم الأحد من أيام سنة ١٩٠٩م ، وكانت السماء تمطر بغزارة ، فإذا بى أرى الفلكى المشهور السير جيمس جيتر ـ الأستاذ بجامعة كمبردج ـ ذاهبًا إلى الكنيسة ، والإنجيل والمظلة تحت إبطه ، فدنوت منه وسلّمت عليه فلم يرد علىّ ، فسلّمت عليه ثانية فلم يرد علىّ ، ثم سلّمت عليه مرة أخرى ، فسألنى ماذا تريد منى ؟

فقلت له : أمرين !

الأول : هو أن مظلتك تحت إبطك رغم شدة المطر ، فابتسم وفتح مظلته على الفور .

وأما الأمر الآخر : فهو ما الذى يدفع رجلا ذائع الصيت فى العلم مثلك أن يتوجه إلى الكنيسة ؟

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال : أدعوك اليوم أن تأخذ شاى المساء عندى ، فلما دخلت غرفته وجدته منهمكًا فى أفكاره ، فبادرنى : ماذا كان سؤالك ؟

ودون أن ينتظر ردى بدأ يلقى محاضرة عن الأجرام السماوية ونظامها المدهش ومداراتها وجاذبيتها حتى أننى شعرت بنفسى تهتز من هيبة الله وجلاله ، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائمًا والدموع تنهمر من عينيه ويداه ترتعدان من خشية الله ، ثم توقف فجأة ، وبدأ يقول : يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الإلهى ، وعندما أركع أمام الله وأقول له :« إنك لعظيم » أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذه الدعاء ، وأشعر بسكينة وسعادة عظيمتين ، أفهمت يا عناية الله لِمَ أذهب إلى الكنيسة ؟

يقول الدكتور عناية الله : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانًا فى عقلى ، وقلت له لقد تأثرت جدًا بالتفاصيل التى رويتموها لى ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من كتابى المقدس ، فلو سمحتم لى بقراءتها ، فهزّ رأسه قائلاً : بكل سرور ، فقرأت عليه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٧، ٢٨] . فصرخ السير جيمس قائلاً : ماذا قلت ؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء ، مدهش وغريب جدا !! إن الأمر الذى حدثتك عنه كان نتيجة دراسة استمرت أكثر من خمسين عامًا من أنبأ محمدًا به ؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب منى شهادة أن القرآن كتاب موحى به من عند الله] [١] .

• • •

(١) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، ترجمة ظفر الإسلام خان ،ط٧ (القاهرة : المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٣٧هـ ـ ١٩٧٧م) ص٢١٠ـ ٢١٢ .

obeikandl.com

من سلبيات الحوار

قد يستبدينا الحماس فى حوارنا .. وتحت وطأة موجاته المتتابعة تتداخل الآراء ويكفهر الجو . فلا تكون الرؤية واضحة .

وعندئذ .. يكون من الأنسب ألا يتوقف الحوار .

إن الأنسب ترك الأمور تجرى فى أعنّتها .. حتى إذا هدأت النفوس .. واستعدت للتلقى كان التدخل مناسبًا .

ذات يوم : حضر الغـداء .. ودخل البيت .. فاختلفت الآراء : آراء الشباب .. هل يقدمون الغداء .. أو الصلاة ؟

وانتصر رأى القائلين : الصلاة .. فلما صلوا وعادوا .. قال شيخهم الذى طاوعهم : فيم كنتم تفكرون فى صلاتكم ؟

ـ فى الطعام .

ـ ولو أكلتم .. فيم كنتم تفكرون ؟

ـ فى الصلاة !!

ـ وإذن فالبدء بالطعام كان أفضل !!

وقد تذكرت ما كان يفعله « أبو الدرداء » رضي الله عنه .. والذى كان ينجز كل حاجاته قبل الدخول فى الصلاة .. حتى إذا دخل فيها .. غاب عن الدنيا كلها .. أو غابت عنه!!

ب ـ نحن اليوم فى موقع المغلوب .. ولأن المغلوب مولع بتقليد الغالب فلنكن على حذر .. لاسيما إذا تصورنا أن خصوم الأمس كانوا سطحيين .. وكان تقليدهم ضحلا .. لكن الإسلام كان صاحيا .

أما اليوم : فخصومنا أيقاظ .. يفكرون بجد .. وخططهم مدروسة ..

وفكرهم مسموم . . ونحن أمامهم ضعاف ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧] .

الحقيقة المرة :

وهناك حقيقة اجتماعية لابد من استيعابها . . وهى : ليس يخلو المرء من ضد . . ولو حاول العزلة فى رأس جبل .

وضدنا غير ماكر . . بدليل ما يروج له إعلامه : والذى يصور الإسلام هكذا: رجلا يمسك بإحدى يديه سيفا وبالأخرى مصحفًا . .

ثم يصور اليد الممسكة بالسيف لتكون : أطول . . وأضخم . . فماذا فعلنا؟!

على الداعية : أن يكون أسوة حسنة يصدق عمله قوله حتى يفر بدعوته من التناقض الذى يربك المدعو فلا يتعاطف معه . وهذا ما نعاه تعالى على اليهود فى قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤] ثم فى قوله تعالى موضحًا سمة من سمات المجتمع اليهودى : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة: ٧٩] .

فإذا كان الداعية واحداً ممن عاتبهم الله تعالى فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢] ماذا يحدث ؟

هنا يبدو الداعية لتناقضه شخصية غير مرغوب فيها . . وبالتالى سوف يعرض عنه .

قد يموّه الداعية . . ليرسم لنفسه صورة غير حقيقية وأنه يملك من المواهب ما يجعله أجدر باحترام الناس . . ليقعوا فى شَرَكه المنصوب .

ولكن الآيات الكريمة تردعه . . ليتعامل مع الناس بما يملك فعلا من مواهب . . مجردا نفسه من كل إضافة وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] .

﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ... ﴾ [الأنعام: ٥٠] .

فالرسول ﷺ مأمور بإعلان أنه بشر يوحى إليه .. لا يملك طاقات خارقة تحقق أمانيهم .. لأن ذلك كله إلى الله تعالى .

ويعنى ذلك أنه يضع حدًا لأمنياتهم الموغلة فى الخيال .. ليتعاملوا معه .. ولا يحملوه ما لا يطيق ..

ـ يجب أن يكون الداعية منفتحًا على الناس .. مهما كانت عقائدهم وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ... ﴾ [التوبة: ٦] .

فمن حقه أن يعلم حقيقة ما يدعى إليه .. ثم تكفل بإفهامه .. فإن قبل فبها .. وإلا .. فحسابه على الله .. لا عليك .

وهذا الحق المكتسب .. بسبب أنهم لا يعلمون .. وواجبنا أن نحبط عذر الجهل .. حتى نعرّيهم أمام أنفسهم .

• • •

ومن سلبيات الحوار : الكبر

يقول العلماء :

[الكبر بطر الحق وغمط الناس ، وذلك فى حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر** » ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسن؟ قال : « **إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس** » (١) .

قال الحافظ المنذرى : بطر الحق هو دفعه ورده على قائله ، وغمط الناس هو

---

(١) صحيح مسلم برقم (٩١) .

احتقارهم وازدراؤهم (١) .

وهو المعنى الظاهر للكبر عند الغزالى ، الذى هو ثمرات الكبر ، والأعمال التى تنتج عن الكبر الباطن ، والمعنيان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر .

وهذا الحديث الشريف يفيد أن الكبر ليس بلبس الثياب الجميلة ، ولا بالحرص على جمال المظهر ، فإن ذلك شيء حسن يحبه الله تعالى فى عبده ، إنما الكبر رفض الخضوع لأحكام الشريعة ، والتعالى على عباد الله تعالى واحتقارهم.

خطورته :

الكبر مرض فى القلب خطير ، وهو ذو أثر على صاحبه وبيل ؛ لأنه سبب الطبع على القلب ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥] . فلا يصل الخير والهدى والنور إلى قلب المتكبر ، ويصرفه الله عن تدبر دلائل التوحيد ، وآيات الهدى ، ومواعظ القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

والكبر يحمل صاحبه على رفض الحق ، رغم وضوح الدليل وسطوع البرهان، ورغم اليقين التام بالحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤] .

ومن أخطر ما فى الكبر من الشر أنه يمنع صاحبه من دخول الجنة ، كما جاء فى حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر** » رواه مسلم .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى (٣/ ٥٤١) .

قال الغزالى فى الإحياء : (وإنما صار حجابًا دون الجنة ، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هى أبواب الجنة ، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ؛ لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ، ولا يقدر على التواضع ـ وهو رأس أخلاق المتقين ـ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز ، ولا معنى للتطويل ، فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزه ، فمن هذا لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة منه) ا.هـ [1] .

ويضاف إلى ما ذكره الغزالى أن الكبر فيه منازعة لله عز وجل فيما هو من صفاته الخاصة به جل وعلا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية:٣٧] . أى الكبرياء له وحده كما يفيده تقديم الجار والمجرور .

وعن أبى سعيد الخدرى ، وأبى هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : **«العز إزارى والكبرياء ردائى فمن ينازعنى عذبته»** [2] .

لذلك كان حريًا بكل مسلم أن يبتعد عنه . وجدير بالدعاة على وجه الخصوص الحذر منه أشد الحذر ، ليسلموا من العقوبة المترتبة عليه فى الدنيا والآخرة . فأما فى الدنيا فإن من عقوبة المتكبر الذلة والهوان ، كما جاء فى حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « **ما من آدمى إلا فى رأسه**

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٠) .

حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك ضع حكمته » رواه الطبرانى [(١)] .

أما الخاضعون لجلال الله تعالى ، المتواضعون لعباده ، فإن الله تعالى يرفع أقدارهم بين الناس ، ويعلى مكانتهم بين العباد ، كما أفاده الحديث السابق ، وكما جاء عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **« ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »** رواه مسلم[(٢)] .

ومن عقوبة المتكبر والمعجب بنفسه تعرضه للعذاب الأليم فى الدنيا ، بمثل ما قص علينا القرآن الكريم ، من أخبار المتكبرين فى الأمم الغابرة ، وهو فى آيات القرآن الكريم كثير .

• • •

آفة الكبر

قيل لأحد العلماء : فى كم ألفت هذا الكتاب الضخم الفخم .. فأشار بأصابعه الثلاثة ..ثم أردف : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨] . فلم يكملها حتى هوت يده شلاء !!

وتلك عقبى الذين استكبروا : أن يحرقوا بنار الدنيا .. قبل نار الآخرة .

لكن:ما هى أسباب الكبر :

القوة .. أو الحسب .. أو الذكاء والعلم .

---

(١) المعجم الكبير برقم (١٢٩٣٩) ، قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٣/ ٥٣٢) (رواه الطبرانى ، ورواه البزار بنحوه من حديث أبى هريرة وإسنادهما حسن . والحكمة بفتح الحاء والكاف هى ما تجعل فى رأس الدابة كاللجام ونحوه) اهـ . وانظر السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (٥٣٨) .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٨٨) .

وكان على هذا الرجل القرآنى أن يردع نزعة الكبر فى قلبه بهذه الآيات .

أما القوة : فيردعها بمثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٧] .

وأما الحسب أو الجاه : فتمثل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] .

وأما الذكاء : فكان يكفيه مآل قارون : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص: ٧٨] .

• • •

من آفات الحوار

آفة الحوار هى : إحساس المحاور بالغرور .

وقد كان جل المستشرقين كذلك بالإضافة إلى سبب ثان هو : اعتقاد المستشرق ببطلان دعوى الإسلام .

ومهما حاول أن يكون منصفا . . فتلك المقدمة الخاطئة . . وهذا الغرور مانعان من الوصول إلى الحق .

ولكن الذى وصلوا إليه هو : التناقض : محمد صادق فى نفسه . . كاذب فى رسالته !!

التعصب : فهم يؤمنون بكل الأنبياء . . إلا محمداً . . ويسوغ لأكثرهم الإيمان . . بألوهية عيسى !!

وحتى لا نخدم أعداءنا . . بالانفعال . . يقول أحد الكاتبين :

[جالت بخاطرى وأنا أتابع زيادة مبيعات كتاب تافه مثل « آيات شيطانية » وأحاول ملاحقة انتشاره فى الجامعات الأمريكية إلى حد قيام بعض أقسام اللغة

الإنجليزية والدراسات المقارنة فى الولايات المتحدة بتدريس هذا الكتاب . وكان أول ما فعلته محاولة قراءة هذا الكتاب !! وأقول محاولة لا أكثر فقد قضيت أسابيع أحاول تجاوز الصفحات الأولى منه ، وهى صفحات ما زالت بعيدة عن الجزء الذى يتبجح فيه الكاتب فى تطاوله على الإسلام لكننى فشلت فى تخطى الخمسين صفحة الأولى . فالكتاب من الناحية اللغوية والأدبية عمل ردىء . ينم عن خيال مريض ، وقدرة أقل من متوسطة فى التعبير . يحاول المرء فى أحيان كثيرة أن يربط بين الجملة والأخرى . بل حتى بين أجزاء الجملة الواحدة بلا جدوى . لم أقرأ فى حياتى شيئًا بهذه الركاكة . وقد أنتجت نفس القريحة المتوسطة المستوى أعمالا من قبل . ولم تنجح فى تحقيق أى نجاح فماذا حدث فى هذه المرة ؟ وهل يملك هذا العمل مقومات خاصة مكنته من تحقيق هذه الشهرة غير العادية للمؤلف المغمور ؟

ما حدث هو أن بعضنا للأسف الشديد لم يدرك أن قراراته لم تعد تؤثر فيه وحده نسى البعض آخرية الآخرين ، وهكذا كان الحكم الذى أصدره بعض المسلمين بإهدار دم المؤلف بداية لردود فعل متعاقبة ومتزايدة تؤكد حق الآخرين فى آخريتهم . لم يعد العالم كما قلنا جزرًا منفصلة . بل قرية صغيرة متصلة الأطراف . وهكذا أدى الحكم المتسرع غير المدروس إلى عكس ما أراده أصحابه تمامًا . فقد أصبح صاحب الخيال المريض ، وصاحب الموهبة الفقيرة . والتعبير الركيك شهيدًا من شهداء الرأى . وصاحب بيان يستحق التدريس فى الجامعات الأجنبية . وعلى درجة من التميز تؤهله للمقارنة بجيمس جويس وهمنجواى . بل إن بعض أساتذة الأدب فى الولايات المتحدة استغلوا بعض الآراء غير المسئولة فى العالم العربى وبدأوا مقارنة بين سلمان رشدى ونجيب محفوظ !! هل يمكن أن يصل بنا الأمر إلى هذا الحد !!

والغريب أن بعض القائمين على تدريس سلمان رشدى فى الجامعات الأمريكية يردون على الاحتجاجات العربية والإسلامية فى هذه الجامعات قائلين

بأن الكتاب تافه أو متوسط القيمة على أكثر تقدير ، بل ويعترفون صراحة بأنه لولا الضجة الإسلامية العنيفة لما شعر واحد بهذا الكتاب ولانضم لأعماله الأخرى فى عالم النسيان . لكن الضجة الإسلامية هى التى أتاحت هذا الاستقبال الصاخب لعمل فى مثل هذه التفاهة !! لماذ لم يأت رد فعل الأمة الإسلامية مدروسا وهادئًا وعاقلا مثل رد الأزهر الشريف فى مصر !! لقد كان الرد رذينا يقوم بالتنبيه والتحذير والإدانة . ولكنه لا يريق دم أحد فيحوله إلى شهيد لحرية الرأى وهو شرف لا يستحقه هذا النكرة بأى حال من الأحوال] اهـ .

• • •

openkandl.com

من صور الإنصاف

إن قيمة الإنصاف : صعبة المنال ! لماذا ؟ لأنك تكون قادراً على التنكيل بخصمك ماديًا أو أدبيًا : ومع ذلك .. تضغط على مشاعرك فتعطيه حقه فى الدفاع عن نفسه .. وربما أتيح لك أن تحكم لصالحه .. ولو أضر ذلك الحكم بوجهة نظرك .. اقتناعا منه بحقه فى الإنصاف : رغم أن الخوارج كفَّروا من سواهم .. بل واستحلوا دماءهم .. إلا أن المسلمين لم يكفروهم . وفى مقدمتهم الإمام على رضي الله عنه ، فقد سئل الإمام رضي الله عنه : أمشركون هم ؟ فقال : من الشرك فروا !

فقيل له :أمنافقون ؟ فقال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً ! فلما قيل له: فما هُمْ إذن ؟ قال : قوم بغوا علينا فقاتلناهم !

وهذا درس من دروس الموضوعية فى الحكم على الناس والأحداث ..

وهو : تنحية الهوى .. لتكون الكلمة الأخيرة للإنصاف : إنصاف الآخرين من نفسك ..

وإلا .. فإن الحكم بالهوى خارج بنا من دائرة هذا الإنصاف .. حتى إن من قال فى القرآن بهواه .. فأصاب .. فقد أخطأ ..

ولقد كان الإجماع على حب الإمام ـ رحمه الله ـ أمرًا مفروغًا منه .. إلا أن الشيعة كانوا يكرهونه ..

وذات يوم سمع الإمام ناسا يتكلمون فى علىّ رضي الله عنه .

فقال لهم : كفوا : لقد أكثرتم فى علىّ .. وعلى والله ما زانته الخلافة .. ولكنه زانها !!

فلما سمع بعض الشيعة ذلك قال : والله لقد أخْرَجْت نصف بغضى للإمام.. بهذه الشهادة !!وإنها لشهادة حق .. لكن الميزان متقلب .. إنه الهوى

الدوار مع الزمان حيث دار الزمان ! ولكن الإسلام شيء غير هذا تمامًا . .

لقد حسم الإسلام قضية العقيدة . . حسمها . . ورفض أن تكون محل مساومة . .

أما فيما يتعلق بالعادات . . فقد كان مرنا . . حيث أبقى على الطيب منها . . فكان بذلك موضوعيا . . ولم يشطب على التاريخ الإنسانى كله بجرة قلم !

فلماذا لا نكون موضوعيين فى حكمنا على الجيل القديم . . وبخاصة العلماء منهم ؟

إن التملق مذموم . . لكنه مطلوب معهم حرصًا على عملهم . . ولله در ابن عباس لقد كان رضي الله عنه على سعة علمه ـ يذهب بطلب العلم . . فإذا وجد الشيخ نائمًا . . انتظره لدى الباب . . وفى مهب الرياح السافية . . حتى يأخذ حظه من النوم . . موفور العافية . .

هكذا كان ابن عباس . . فماذا تعلمنا منه ؟

ولقد أخذنا علمه النظرى . . أما هذا الدرس العملى . . فلم نلتفت إليه . . لأنه يصطدم بغرورنا !!أو كما قال علماؤنا .

كان للإمام علىّ رضي الله عنه . . اهتمام خاص بالفلاحين . .

يظهر ذلك فيما كتبه لمن يتولى تحصيل الخراج منهم. « لا تروعنّ مسلمًا . ولا تجتازن عليه كارهًا . .

ولا تأخذ منه أكثر من حق الله تعالى فى ماله .

فإذا قدمت على الحى . . فانزل بمائهم . . من غير أن تخالط أبياتهم . .

ثم امض إليهم بالسكينة والوقار . .

فتسلم عليهم . . ثم تقول : عباد الله : أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم . فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟

فإن قال قائل : لا . . فلا تراجعه .

وإن أنعم لك فنعم ـ أى قال : نعم ـ فانطلق معه : من غير أن تخيفه . . أو توعده . أو تعسفه . أو ترهقه فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة .

فإن كان له ماشية أو إبل . . فلا تدخلها إلا بإذنه . . فإن أكثرها له .

فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه . ولا عنيف به .

ولا تنفرن البهيمة ولا تفزعها ؟!! ولا تسؤون صاحبها فيها » [1] .

إنه درس فى التمكين لخلق العزة . . وحتى تظل قامة العامل مشدودة ورأسه عاليا . .

إن الأذلاء . . من طول الانحناء لا يعرفون لون السماء . . وإذ يقول تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ...﴾ [محمد:٧] .

فإن من واجبنا أن نصرخ فى آذان العاجزين :

إن المسلم الذليل . . لن ينصر مولاه الجليل .

• • •

الخارجية .. الذكية

قيل : أتى الحجاج بامرأة من الخوارج ، فقال لأصحابه : ما تقولون فيها ؟ قالوا : عاجلها بالقتل أيها الأمير .

فقالت الخارجية : لقدا كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج . قال : ومن صاحبى ؟ قالت : فرعون استشارهم فى موسى عليه السلام فقالوا : أرجئه وأخاه .

قال رجل خارجى للحسن البصرى : ما رأيك فى الخوارج ؟

(١) المنهج ا لا[illegible] (٢٩٨، ٢٩٩) .

obeikandl.com

فقال : طلاب دنيا .

فقيل له : كيف وهم يمشون بين الرماح والمعارك مضحين بحياتهم وأهليهم ؟

هل يمنعك الحاكم من أن تصلى . . من أن تحج . . من أن تصوم ؟

لا . .

ما أراه إلا السلطان تحاربه عليه ، والسلطان هو الدنيا !

وتسعفنا الذاكرة هنا بابن عطاء الله رحمه الله . . والذى كان مثلا يحتذى فى هذا الباب : فقد كان رحمه الله يدرس الفقه المالكى فى الأزهر . ولكنه لم يكن متعصبًا :

كان من أمانته العلمية . وإنصافه : يذكر كل الآراء فى القضية . . وبعد ذلك يرجح ما يختاره . . ولو كان على غير مذهبه . .

وكان من آثار ذلك : أنه لما كثر ترجيحه لآراء الشافعية : عده العلماء فى طبقتهم (وترجموا له فى طبقات الشافعية).

يقول الله عز وجل : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥] .

يقول صاحب « التحرير والتنوير » : « وإنما قدم عليه قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ [آل عمران: ٧٥] إنصافًا لحق هذا الفريق ؛ لأن الإنصاف مما اشتهر به الإسلام» .

ثم واصل تعليقه قائلا : « وإذا كان فى زعمهم أن دينهم يبيح لهم خيانة غيرهم فقد صار النعىُ عليهم . والتعبير بهذا القول لازم لجميعهم : أمينهم ، وخائنهم : لأن الأمين حينئذ . لا مزية له إلا فى أنه ترك حقًا يبيح له دينُه أخذَه . . فترفَّع عن ذلك . كما يترفع المتغالى فى المروءة عن بعض المباحات » .

ولنا هنا تعقيب .

السياق العام هنا يشى بعدم استوائهم .. بل هناك فيهم أمناء ؟ وإذن .. فدعوى التسوية بينهم : الأمين والخائن .. فيها نظر !!

ذلك أن السياق ينصفهم :

١ ـ بتقديم النموذج العالى وتأخير النموذج الردىء.

٢ ـ وقبل ذلك يشرفهم بأنهم أهل الكتاب .. فهم أقرب إلينا رحمًا .

يقول صاحب « المنار »: [وانظر كيف أنصفهم الكتاب : فبيّن أن منهم الوفى والخائن . ولا يكون أفراد جميع الأمة خائنين . وناهيك بأمة منها السموءل] .

وتقديم المسند فى قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران:٧٥] فى الموضعين للتعجيب من مضمون صلة المسند إليهما :

ففى الأول : للتعجيب من قوة الأمانة مع إمكان الخيانة . ووجود العذر له فى عادة أهل دينه .

وفى الثانى : للتعجيب من أن يكون الخوّن خلقًا لمتبع من كتب الله .

وهو نفسه يقول فى نفس الموضع : [وقد ذكر الله هنا : أن فى أهل الكتاب فريقين : فريقًا يؤدى الأمانة تعففا عن الخيانة ، وفريقًا لا يؤدى الأمانة . متعللين لإباحة الخيانة فى دينهم .

قيل : ومن الفريق الأول : عبد الله بن سلام . ومن الفريق الثانى : فنخاص ابن عازوراء . وكلاهما من يهود يثرب .

والمقصود من الآية : ذم الفريق الثانى إذا كان من دينهم فى زعمهم : إباحة الخوْن].

يقول الرازى : « الآية دالة على انقسامهم قسمين بعضهم أهل الأمانة وبعضهم أهل الخيانة » . ا . هـ .

المغزى

[فليس هناك شر محض . ولا خير خالص : فمهما استشرى الشر ، فإن فيه لُمَعًا من الخير لا تكاد ترى . ومهما صفا الخير فإن فيه غشاوات من الشر لا تكاد تبين] ا . هـ .

واليهود وإن كانوا الشر كله من الرأس إلى القدم : ففيهم الضالون ، وفيهم المؤمنون ، كما يقول الله تعالى : ﴿ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

وفى تعليقه على قوله تعالى : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ... ﴾ [آل عمران:١١٣] ، يقولون: « استئناف قصد به إنصاف طائفة من أهل الكتاب بعد الحكم على معظمهم بصيغة تعمهم. تأكيداً لما أفاده قوله: ﴿ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

فالضمير فى قوله : ﴿لَيْسُوا ﴾ [آل عمران:١١٣] لأهل الكتاب المتحدث عنهم آنفًا . وهم اليهود » .

ثم قال : « . . وعدل عن أن يقال » منهم ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ [آل عمران:١١٣] إلى قوله : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... ﴾ [آل عمران:٧٥] ليكون هذا الثناء شاملاً لصالحى اليهود . وصالحى النصارى . فلا يختص بصالحى اليهود .

فإن صالحى اليهود قبل بعثة عيسى كانوا متمسكين بدينهم مستقيمين عليه ، ومنهم الذين آمنوا بعيسى واتبعوه .

وكذلك صالحو النصارى . قبل بعثة محمد ﷺ كانوا مستقيمين على شريعة عيسى .

وكثير منهم أهل تهجد فى الأديرة ، والصوامع . وقد صاروا مسلمين بعد البعثة المحمدية . . ومعنى قائمة: أنه تمثيل للعمل بدينها على الوجه الحق»ا . هـ. ومعنى : ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [المؤمنون:٦١] ، أى : يرغبـــون فى الاستكثار منها . ا . هـ.

وقد تعجب من الفريقين على سواء مع أن الأمناء أولى بالإعجاب والخائنون أجدر بالتعجيب ؟!

• • •

ومن الإنصاف

يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] .

ويقول عز وجل بعد ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة: ٥٧] .

ويقول عز وجل : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا... ﴾ [المائدة: ٨٢] .

ومع ذلك ينصفهم : إزاحة .. للعذر . وإزالة .. للشبهة .

يقول عز وجل : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ [آل عمران: ١١٣] .

إن المسيحية : دين المحبة . والإسلام دين الرحمة :

رحمة النفس : « إن لبدنك عليك حقًا » .

رحمة بالزوجة : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] ..

رحمة بالأولاد : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم ﴾ [الأنعام: ١٥١] .

رحمة بالوالدين : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤] .

• • •

شبهة مردودة

قال الفتى : قرأت فى كتاب « صيد الخاطر » لابن الجوزى تحت عنوان : «الحكمة فى الإبقاء على اليهود والنصارى » . . قرأت ما يمكن أن يكون اعترافا بأن الجزية المفروضة على أهل الكتاب . . إنما هى إذلال لهم .

وقلت للفتى : إليك ما كتبه الرجل فى صيد الخاطر . تحت هذا العنوان ليتبين الحق كما هو . . بعيدًا عن تأويلات الجاحدين .

جاء فىٌ كتاب « صيد الخاطر » ، يقول : « ابن الجوزى » تحت عنوان : الحكمة فى الإبقاء على اليهود والنصارى ، قال : تفكرت فى إبقاء اليهود والنصارى بيننا . وأخذ الجزية منهم ، فرأيت فى ذلك حكمًا عجيبة :

منها: ما قد ذكر : أن الإسلام كان ضعيفًا . فتقوى بما يأخذ منهم جزيتهم .

ومنها : ظهور عزه بذلهم ، إلى غير ذلك مما قد قيل .

ويبدو « ابن الجوزى » على غاية ما يكون التوفيق . حين يروى ذلك بصيغة التمريض [قيل] بما يشير إلى أنه غير مذعن لهذا الذى قيل : ذلك بأن الإسلام إنما هو باق لأنه عزيز بذاته . . بمبادئه . .

وليست عزته مخصومة من حساب جهة ما . .

وأن للجزية أسرارها . . وليس منها إذلال الإنسان .

وقد أكد ابن الجوزى ـ رحمه الله أن بقاءهم كان لحكم أخرى : قال : ووقع لى فيه معنى عجيب :

وهو : أن وجودهم . وتعبدهم ، وحفظهم شرع نبيهمﷺ دليل على أنه قد كان أنبياء وشرائع .

وأن نبيناﷺ ليس ببدع من الرسل : فقد اجتمعت الجن وهم على إثبات صانع . وإقرارٍ برسل . .

وإذن .. فإننا لم نبتدع ما لم يكن .. ولعل مما يشير إلى هذا الإلزام قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨ ـ ٥٠]، وهم يصبرون على باطلهم . ويؤدون الجزية . .

فكيف لا نصبر على حق والدولة لنا ؟!!

وفى بقائهم : احترام لما كان صحيحا من الدين . . وليرجع متبصر . وليستعمل منكر .

ولعل مما يشير إلى هذا المعنى قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨ ـ ٥٠] .

يقول الرازى : « إنه لا إنكار فى إنزاله . وفى عجائب ما فيه . . فقد أتينا موسى وهارون التوراة .

ثم هذا القرآن معجز : لاشتماله على النظم العجيب ، والبلاغة البديعة .

واشتماله على الأدلة العقلية . وبيان الشرائع : فمثل هذا الكتاب ـ مع كثرة منافعه ـ كيف عليكم إنكاره » ؟

والمعنى : « أنه لو أنكره غيركم لكان ينبغى لكم مناصبته . . فكيف يكون الإنكار منكم » ؟!

وإذن . . فالقرآن الكريم يحاكمهم إلى العقل . . العقل الذى آمن بموسى وهارون نبيا . . وبالتوراة رسالة . .

كيف ينكر أن يكون محمد رسولاً . . والقرآن رسالة ؟!

شهادة الواقع :

والواقع التاريخى شاهد بحسن معاملة اليهود : فبعد أن صالح ﷺ أهل

خيبر على شروط معينة جعل بعض الشباب المحاربين يقعون فى حرث اليهود ، ويأكلون من ثمره ، فاشتكى اليهود له عليه الصلاة والسلام . . فأمر بأن ينادى : الصلاة جامعة .

ثم حمد الله وأثنى عليه وقال : لقد اشتكى اليهود أنكم وقعتم فى حظائرهم وقد أمّناهم على دمائهم وأموالهم التى فى أيديهم وفى أراضيهم . .

ألا إنه لا تحل لكم أموال المعاهدين إلا بحقها .

وأمر ألا يؤخذ شىء من بقول اليهود إلا بثمن.

يقول بعض الكاتبين : ويقولون بعضهم إن ما يجب أن نسعى إليه ونبحث عنه هو التعايش السلمى بين الحضارات ، فلماذا لا نؤكد على الاحتفاء بكل الحضارات ؟ إن الحضارة ليست هى التسامح مع بعضنا البعض ، أو هى مناقشة الاختلافات فيما بيننا فقط ، بل هى الاعتزاز والتمسك بهذه الاختلافات وهى الاحتفال بأفضل ما يميز وتعتز به وتقدمه كل حضارة وثقافة .

ويكشف مفكرنا مخطط دعاة صدام الحضارات فيقول : إنهم يعتقدون أن كل ما يأتى من الغرب فهو عالمى ، أما الأفكار والثقافات الأخرى فغير ضرورية وزائدة عن الحاجة ولو ظلت فسيقع صدام الحضارات .

ولتجنب هذا ـ من وجهة نظرهم ـ يجب أن تكون هناك حضارة واحدة فقط فى العالم فكل شىء يجب أن يتخذ معياراً قياسيًا وفقا للممارسات الغربية ، على الرغم من أن هذه المعايير القياسية يمكن أن تتغير إذا ما تغير الغرب . . وهكذا فإن العالم المتعولم ـ كما يراه الغرب ـ سيتسق بأكمله وسينظر إلى التنوع فيه على أنه شىء عابر ، ولذلك يجب القضاء عليه ، بمعنى القضاء على كل الحضارات الأخرى.

وهنا يلقن مفكرنا محضير بن محمد دعاة صدام الحضارات درسًا بليغًا فى التاريخ ويؤكد أن جميع الحضارات تقوم وتنهار فبعد أن تبلغ الذروة منها وهذا ما حدث للإمبراطورية الرومانية وهو نفس ما حدث للإمبراطورية الإسلامية ، فعندما كانت الديانة هى دافعهم أرادوا أن يكتسبوا المعرفة ، فدرسوا أعمال الإغريق والرومان وترجموها إلى العربية واعتاد الأوروبيون أن يلتحقوا بالجامعات الإسلامية فى بغداد والعراق لأنهم عرفوا أنهم أرقى الشعوب وفى هذه مرحلة توقف المسلمون عن طلب المعرفة ، وهذا مثل الأغنياء الذين يسندون الأعمال الشاقة إلى الأجانب ، فإذا فعلوا ذلك وهنت عضلاتهم . .

وهنا يطالب مفكرنا محضير بن محمد عندما ترتقى شعوبنا وهو أمر حتمى فالشىء المهم هو أن يبقى الشباب متنبها وفعالا على الدوام والأهداف المتتابعة أحد الطرق لتحقيق ذلك فإذا تحقق هدف ظهر هدف آخر ، وعندما نظن إلا شىء بعد ذلك يلزم تحقيقه ، فسوف تموت إرادتنا ، فمن الضرورى إذن أن تسعى الدول وراء هدف بعد الآخر حتى يظل المجتمع حيًا ومتنبها .

ورؤية مفكرنا محضير بن محمد هنا تؤكد دروسًا مهمة لكل أصحاب الحضارات من أجل ازدهار عالمنا المعاصر ككل الذى يجب ألا يعمل فقط على أساس من الاحترام المتبادل بين أصحاب الحضارات المختلفة بل يجب عليه أيضًا أن يشجع قيام حضارة عالمية يدفعها احتفاء بالحضارات كلها وتحتوى على كل ما يميز جميع الحضارات .

وانسجاما مع دعوة مفكرنا محضير بن محمد لحوار الحضارات تأتى دعوته من أجل تفعيل دور حوار الشمال والجنوب وهو الحوار الغائب والمتعثر .

ويفسر مفكرنا خلفية تقسيم العالم إلى شمال وجنوب ويرجعها إلى العلاقات القديمة بين القوى الإمبريالية الغربية ومستعمراتها ، والمنتظر بعد حصول المستعمرات السابقة على استقلالها أن تكون علاقاتها بسادتها الاستعماريين

السابقين علاقة أنداد ، إلا أنها سرعان ما أدركت أن الحال ليس كذلك ، فكل ما حدث هو تغيير فى الاسم من كونها مستعمرات إلى كونها جنوبًا ، وأصبح السادة المستعمرون السابقون يسمون شمالا ، والضغوط القمعية الآن أقل مباشرة وتجرى باسم الديمقرطية وحقوق الإنسان إلا أن الأثر واحد . . ولابد من أن تخضع المستعمرات السابقة للشمال ، أى للقواعد والتنظيمات والسياسات التى يضعها الشمال من أجل مصلحة الشمال .

وهنا يتساءل مفكرنا محضير بن محمد : كيف ندير إذن العلاقات بين الشمال والجنوب ؟ كيف تحل المشكلات الناشئة عن هذه العلاقة غير المتكافئة فى سياق الحاضر؟

ويجيب مفكرنا على هذا التساؤل بتقديم عدد من الحقائق ، والوقائع الخطية التى تكشف الوجه القبيح لدول الشمال ونواياها الاستفزازية قديمًا وحديثًا فيما يلى:

أولاً : على مدى عدة قرون رأينا الأمم القوية تثرى نفسها بإفقار غيرها ، وهاهم يتحدثون عن لعبة حاصل الجمع صفر ، والتى يتحقق فيها مكسب أمة على حساب وخسارة الأمم الأخرى . وكانت عبارة « أنقرجادك » فى أيام الاستعمار قائمة إلى أيامنا هذه ، لقد استخلصوا موارد المستعمرات ليعودوا بها إلى عواصمهم وبعدما أصبح الاستعمار بغيضًا وغير محترم غيروا شروط التجارة، حيث اضطرت الأمم المستقلة حديثا التى كانت مستعمرات فى السابق ، إلى بيع أكثر منتجاتها الأولية ، حتى تتمكن من شراء الأقل والأقل من السلع المصنعة من الأمم المتقدمة .

والآن يطلب من الدول الفقيرة ألا تستغل مواردها لأنها تعرض مناخ العالم وجودة البيئة وصلاحيتها للخطر ، يطلب منها ذلك من أجل صالح الأثرياء . ويجب ألا تدفع أجوراً منخفضة ؛ لأن ذلك من شأنه أن يفقد العمال فى الدول

المتقدمة وظائفهم ، أى أن الدول النامية يجب ألا تستغل مزاياها التنافسية .

ثانيًا : يحب الغرب أن يستخدم عبارة « الملعب المستوى » ويتجاهل الحقيقة القائلة إن الملعب المستوى إذا لم تكن الفرق المتنافسة فيه تعامل بعدالة ، فهو بعيد عن النزاهة . وإذا أتيت بكبار يلعبون كرة القدم الأمريكية ضد أطفال صغار من الدولة النامية ، فلقد يفوز الأطفال ، فالملعب المستوى اختراع من الدول الغنية لتقنين المنافسة غير العادلة ، فالصحافة العالمية التى يتحكم فيها الغرب تحاول أن تبرر نزاهة الملعب المستوى ، وحتى الدول النامية عليها أن تستخدم وسائل الإعلام الغربية حيث إن وكالاتها لا تغطى أحداث العالم ، ونتيجة لذلك تذاع الأفكار المشوشة فى كل مكان ، وما حدث فعلا فى أثناء أزمة العملة فى شرق أسيا لم ينقل على النحو الصحيح . والسيطرة على وسائل الإعلام العالمية من قبل زمرة قليلة من أفراد من الغرب ثراؤهم فوق العادة هو وضع غير صحى وغير ديمقراطى .

ثالثًا : إن التعامل مع تجارة العملة وبوجهة نظرها فى الأفكار الجديدة مثل العولمة والعالم بلا حدود والنزعة الليبرالية والسوق الحرة وكل هذه الأمور التى يقال عنها تفيد العالم قاطبة يمكن أن تأتى بكثير من الأضرار ما لم يعاد توصيفها مع الأخذ فى الاعتبار مراحل تنمية مختلف البلاد وهذه الأفكار كما هى ابتدعتها وفسرتها الدول المتقدمة لصالحها الخاص ، ونحن معشر الدول النامية نطالب بالسماح لنا بإعادة تفسيرها ، لنضمن أن المكاسب سوف تقسم بالعدل بين الدول الغنية والدول الفقيرة .

ومن الواضح أن الدولة المتقدمة صدمت وغضبت من الاحتجاج العنيف ضد العولمة والتجارة الحرة فى اجتماع منظمة التجارة العالمية فى سياتل بواشنطن ولو حدث ذلك فى دول نامية لقالوا : إن هذا يرجع إلى الجهل المألوف ورد الفعل العاطفى للشعب فى تلك البلاد ولكن هذا حدث فى إحدى دولهم ضم كثيراً من أبنائهم ولا يمكن تجاهل مثل هذه المعارضة .

وإلى جانب ذلك فكثير من ذوى النفوذ الضالعين فى الاقتصاديات والأنظمة الأخرى سلموا بأن التجارة الحرة والعولمة ربما لا يكونان أفضل الأمور فى العالم ، وربما كانت هناك أساليب أخرى للتعامل مع المشكلات الاقتصادية يمكن أن تنجح هى الأخرى .

ورغم خطورة مثل تلك التوجيهات والممارسات الخطيرة التى تمارسها دول الشمال ، فإن مفكرنا محضير بن محمد لم يفقد الثقة فى أهمية وضرورة تفعيل وتنشيط حوار الشمال والجنوب مؤكداً أن الدول النامية فى حاجة إلى الدخول فى مباحثات مع دول الشمال أى : الدول المتقدمة ، وبالتحديد مع دول مجموعة الـ٨ وهى الدول الرائدة فى الصناعة وأنه عندما يوضع المخطط الاقتصادى العالمى الجديد يجب ألا يقتصر وضعه فقط على دول مجموعة ال ٨ أو مؤسسات «بريتون وددز » مثل صندوق النقد الدولى أو البنك الدولى أو بنك التسوية العالمية فلابد من أن يكون للدول النامية رأى فى تغيير النظام الاقتصادى والمالى العالمى حيث واجهت دول الجنوب المشكلات التى أفرزها هذا النظام .

ومن أجل مواجهة هذا النظام الاقتصادى والمالى الدولى الخطير يرى مفكرنا محضير بن محمد أهمية وحدة صف دول الجنوب . . ويقول :

هناك عدد كبير من الدول فى الجنوب ، وكل دولة منا هى دولة فقيرة ، وغير قادرة على التأثير فى السياسات الدولية بما يخدم مصالحنا . ورغم الضعف الذى قد تبدو عليه كل دولة منا وهى بمفردها ، فإن القوة الناتجة عن اتحادنا جديرة بالاحترام ، ولهذا فمن البدهى قول إننا إذا أردنا أن نكون مؤثرين يجب أن نعمل سويا .

اثنان لا ينامان . . المسجون . . والسجان !! إن القوى العالمية المهيمنة فى أزماننا الراهنة تعانى من الإسلام فوبيا . . أى الخوف من الإسلام . . ومن ثم نعقت فيها بوم الشؤم وصرخت . . تصارع حضارات . . بينما هتفت ضمائر

أحرار العالم من كل دين .. إن هى إلا اغتصاب الكرامات ..وانتهاب الثروات.. دعك ما فات .. وتخسر ما هو آت !!

مضيت أتأمل ضلالات هنتنيجيتون فى صدام الحضارات .. ترى أين حضارة الإسلام الآن ؟ وما الحضارة سوى الحضور المذكور فى الحياة اليومية لسائر البشر.. فى حين يعيش المسلمون أيامهم الآنية منذ أن يفتحوا عيونهم فى الصباح حتى يأووا إلى مضاجعهم فى المساء ـ يعيشون على أدوات هنتنيجتون المزعوم .. وجود قوتين متضادتين .. أو حتى متقاربتين .. يعمل حسابا لأيتهما ؟ ثم هل يعتبر الغرب ابتداء ممثلا لحضارة مسيحية حقيقية ورؤوسه يجهرون ويتباهون بتوجيهاتهم العلمانية ؟ .. ولا يقيمون وزنا لتعاليم المسيح سواء فى أنظمتهم الداخلية أو فى خلافاتهم الدولية .

لقد حذر كوفى أنان أمين عام الأمم المتحدة فى مناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر الإسكتلندى روبرت بيرنز الداعى إلى التعايش السلمى بين سوية البشر ـ حذر من إلقاء السمع إلى دعاة الفتنة والاحتزاب ضد الإسلام .. ومن النفخ فى أنوف ضعفة العقول من مشايعيهم الذين دأبوا من قدم على رميه افتراء بالجمود ومعاداة الغرب على نحو ما تشى به مقالاتهم ورسومهم الهزلية بصحافتهم عن جهلهم المطبق بحقيقة رسالته .. مؤكداً التداخل المتبادل المتواصل بين الحضارتين الإسلامية والغربية فى مناحى الآداب والعلوم والتجارة حتى أخريات الآباد .

إنما نصراء الفتنة لا يملون من التدثر بعباءة الأديان ليروجوا ما تسمو عنه من بذاءات وهزاءات .. ألم يغضوا الطرف عما ورد فى الكتاب المقدس « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم » .. ألم يسلمونا آذانا غير واعية لما نزل فى القرآن الكريم ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢] .. ما عاد منهم سواء من جاهر بالتطاول على الإسلام أو من ناور وتظاهر زيفًا بمودته .. ما عاد

هؤلاء وأولئك إلا ويرددون على قلب رجل واحد قاله شيشرون « تكلم السيف فاسكت أيها القلم » !! مختلفين وهم تربص أمة الإسلام بهم .. حتى حاكوا أشعب فى طرفته الذائعة وصدقوا أنفسهم ذاك الزعم!!

يخسأ متعصبو الغرب لو حدثتهم نفوسهم المريضة أنهم طالما جيشوا المسيحية فإنهم سيستميلون إليهم مسيحيى الشرق الذين هم فى حقيقتهم ـ والقول لمكرم عبيد ـ مسلمون هوية ارتووا من النبع الإسلامى بل وأضافوا إليه .. وما عهد الحروب الصليبية ببعيد .. ويخسر المعتدون أرواحهم وأموالهم كلما لفقوا الذرائع للعدوان على المسلمين غير معتبرين بتجربة فرنسا .. التى لم يجدها احتلال الجزائر عسكريا مائة وثلاثين عامًا عن الانسحاب منها مدحورا وعلى لسان وزير مستعمراتها لاكوست إقرار عجزه الشهير « وماذا أصنع .. إذا كان القرآن أقوى من فرنسا » ؟

ترى .. متى يكف طغاة الغرب عن ساقط القول .. ويلتفتون إلى الخطر الحقيقى الماحق الساحق لوجودهم .. إنه قادم من أعماقهم .. من انحلالهم .. خطر لا يعمى الأبصار .. لكن يعمى القلوب التى فى صدورهم .. فها هى كنيسة نيوهامشر الأمريكية تنصب مطرانا من الشواذ متجاهلة نواهى العقيدة المسيحية « الإصحاح الأول من الرسالة إلى رومية » .. مما دفع رئيس الكنيسة الأنجليكانية أسقف كانتربرى إلى سحب اعترافه بها .. وها هو الرئيس الأمريكى يعول فى كسب أصواته فى المعركة الانتخابية المقبلة على تعضيده حكمًا حديثًا صادرًا عن إحدى محاكم ولاية ماسا شوستش بإباحة تزاوج الشذوذ !! .. هذه حضارة بهيمية باتت تفتك بها بضراوة سخيمة الإيدز .. وستلحق حتما بقوم لوط حيث خسفتهم أطلال سدوم ..إذ أتاها أمره تعالى فجعلها حصيدًا .. ثم ماذا يدور فى مجتمعاتكم عيانا بيانًا الآن ؟ هل ما طلعت به صحف عشرة ديسمبر الفائت إرصاصات بداية النهاية ؟ عندما أعلن « أزمين ميفز » على شبكة الإنترنت أن ريقه يتحلب لالتهام رجل مفتول العضلات !! .. فكان أن سعى إليه

ضحيته.. ليمزقه إربا .. إربا .. ويودع الأشلاء ثلاجته فتغدو وجبته المفضلة اليومية.. حتى افتضاح أمره !! لم يحدث هذا فى أدغال إفريقيا السوداء .. بل فى برلين حيث وقف القانون الألمانى عاجزًا .. حال كونه لا يؤثم القتل بالتراضى.. ولا أكل لحوم البشر !!

وأخيرًا .. لم نشغل بالنا بأخطار أقطار الغرب المحدقة بها والملفقة .. وقد شهد شاهدان من أهلها « يول أونيل » وزير الخزانة الأمريكية السابق و« ويسلى كلارك » الذى كان مرشحًا بالحزب الديمقراطى لانتخابات الرئاسة الأمريكية القادمة ـ شهدا بأن خطة غزو العراق وتوزيع حقول نفطه على شركات أباطرة احتكار البترول كانت مبيتة ومعدة من قبل أحداث ١١ سبتمبر المفترى عليها .. بزمان !!

يتعجب واحد من شعراء بلدنا .. نزار قبانى :

تذكروا دائمًا أن أمريكا على شأنها

ليست هى الله العزيز القدير.

أمريكا على يأسها لن تمنع الطيور أن تطير

وقد تقتل الكبير بأرودة طفل صغير!!!

• • •

من أساليب الدعوة

إنه الأسلوب « الميدانى » والذى به يكون الداعية سعيدًا وليس الأسلوب المكتبى وكما قيل :

إن من الظواهر الفكرية المرضية التى يعانى منها كثير من الدعاة تصورهم الخاطئ عن شروط العلاقة بالمجتمع ، حيث يلاحظ بروز الدعوة إلى الانعزال بحجة تزكية النفس ، والمحافظة على الإيمان .. لقد فهم بعض الدعاة هذا المعنى

فهما خاطئًا ، وغريبا عن الفهم الإسلامى كما مثلته حياة النبى ﷺ الذى كان يمشى إلى الناس ، ولا ينتظر مجيئهم لأنه لو قعد واعتزل لما أحدث ذلك التحول الكبير ، وهل شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق وحثهم على الخير ، ونهيهم عن الشر، إن الاتصال بالمجتمع بشكل أو بآخر هو السنة الصحيحة وهو الأسلوب الأمثل ، أما العزلة لغير ضرورة فهى البدعة .

لذلك لابد للداعية من أن يتمرن على الأسلوب الميدانى ليعرف الحقيقة كما هى فى الواقع بدلا من المكتبية التى تحول دون معرفة الناس ، والإحساس بهمومهم ومشكلاتهم ، وبالتالى صعوبة فهمهم والتأثير فيهم .

وقد رأى علىّ رضي الله عنه عمر يهنأ بعيرًا أجرب من إبل الصدقة . . فقال له : هلا عهدت بذلك إلى عبد يقوم به . فقال : مَنْ ولى أمر المؤمنين فهو عبد للمؤمنين . يجب عليه ما يجب على العبد لسيده . .

فقال علىّ : لقد أتعبت من جاء بعدك !!

وليت شعرى . . إنه لموقف أبلغ من ألف خطبة وخطبة !!

• • •

من أساليب القرآن

١ ـ ضرب المثل : وذلك لحكم منها : تقريب المعانى بمساعدة المدعو على معرفة الحق محسوسًا : تراه العين . وتلمسه اليد . . فى وقت تتداخل فيه صور الباطل . . وما قد يترتب على ذلك من خنق الحق فى زحام تهريح الباطل .

٢ ـ تجنب التسرع فى الحكم : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [النساء: ٩٤].

٣ ـ الاحتكام إلى النفس . . وما يترتب على ذلك من احترام اختيار غيره: ﴿ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [النحل: ٧١] .

٤ ـ التكرار . . ومن مجالاته : القصة القرآنية . . والتى تكرر فى سور شتى

تكراراً لا يمنع من إضافة الجديد .

الملاحظة العلمية :

ومن فوائد الملاحظة العلمية : تتبع المشكلة لمعرفة جذورها : أسبابها .

• • •

عمرو بن العاص رضي الله عنه

السياسي .. الداعية

قبل إسلامه كان تاجراً يجوب البلاد . . وكان يجيء إلى مصر ، فرأى من خيراتها وتحكم الرومان فيها ، مما دفعه ـ بعد إسلامه ـ إلى أن يطلب من الفاروق فتحها . . فوافق . .

والتقى بـ « شماس » مصرى .

أ ـ فسقاه من عطش .

ب ـ وأنقذه من حية ـ قطاء كانت تقصده .

ولما زار مصر رد له « الشماس » الجميل : وكان ألفى دينار . . لأنه أنقذه من الموت مرتين . .

• • •

استطراد

ونسوق مثالا على ذلك ما حدث فى مصر ، إذ يرى بعض المؤرخين أن المصريين لم يتحولوا إلى أغلبية مسلمة إلا فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر رغم أن الفتح العربى الإسلامى لمصر تم فى سنة ٦٤٠ ميلادية ، وهذا دليل قاطع على تعايش الديانتين : الإسلام والمسيحية ، مئات السنين داخل آلاف العائلات ، وإن التحول إلى الإسلام قد تم بدون إكراه .

كان لدى المصريين شجاعة أدبية تجلت فى موقف المصرى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

١ ـ لقد رفض أن يستكين للظلم .

٢ ـ فضلا عن تنامى الإحساس بظلم الرومان .

٣ ـ وعدل الإسلام .

وأضاف المفكر المسيحى الدكتور إدوار غالى الذهبى أن النتيجة الحتمية لكل ما سبق هى أن تقوم علاقة المسلمين بغيرهم على القاعدة الذهبية الحكيمة التى وردت فى حديث نبوى شريف وتقول : « **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** » .

ويقول الدكتور إدوار : لم تكن هذه القاعدة مجرد شعار يرفع ، وإنما وضعها الرسول الكريم موضع التنفيذ والتطبيق الدقيق فى كافة معاملاته مع أهل الذمة . . وفى هذا الصدد ؛كتب الدكتور محمد أحمد الحوفى : كان عليه الصلاة والسلام يحضر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم ، ويواسيهم فى مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التى يتبادلها المجتمعون فى جماعة يحكمها قانون واحد ، وتشغل مكانًا مشتركًا ، فقد كان يقترض منهم نقودا ، ويرهنهم متاعًا ، ولم يكن ذلك عجزًا من أصحابه عن إقراضه ، فإن بعضهم كان ثريا ، وكلهم يلتهف على أن يقرض رسول الله ، إنما كان يفعل ذلك تعليمًا للأمة وتثبيتا عمليا لما يدعو إليه من سلام ووئام ، وتدليلا على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم .

وكذلك كتب الإمام الشيخ محمد عبده يقول : إن المسلمين ظلوا يحفظون حرمة الأديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ، ويدفعون عنه غائلة العدوان ، ومن العقائد الراسخة فى نفوسهم : أن من رضى بذمتنا فله مالنا وعليه ما علينا .

• • •